THE LAND THAT TIME FORGOT

التّرجمة العربيّة الأولى

الأرض التي نسيها الزمن

أكتشاف أرض لا تعرفها الخرائط

Edgar Rice Burroughs

إدغار رايس بوروز



اسم الكتاب: الأرض التي نسيها الزمن

الجزء الأول من ثلاثية كاسباك

اسم المؤلف: إدغار رايس بوروز

اسم المترجم: سماح الجلوي

تصنيف الكتاب: روايه

تصميم الغلاف: ندي اسامة

تنسيق داخلي: أيمن عبد الباري

رقم الإيداع: 29552 / 2024

الترقيم الدولي: 5 - 26 - 9647 - 977 - 978



العنوان: ١٨٣ ش التحرير عمارة ستراند وسط البلد - القاهرة - مصر

التليفون: ٠١٠٢٩٧٥٥٢٠٠

Email: darkitabone @ gmail.com

الفصل الأول

حدث ما حدث بعد الساعة الثالثة بقليل من عصر يوم الثالث من يونيو عام 1916. من الصعب تصديق أن كل تلك التجارب العجيبة والمروعة التي عصفت بي قد وقعت في فترة قصيرة لم تتجاوز الثلاثة أشهر، لقد بدت لي وكأنها دورة كونية كاملة بأسرارها وتحولاتها. رأيت أشياء لم ترها عين بشرية من قبل، لمحات من عالم قديم، وعالم ميت اندثر منذ زمن بعيد حتى اختفى أثره ليس فقط من أعماق الأرض، بل من أقدم طبقات العصر الكامبري أيضا. ذلك العالم الغابر، الذي اندمج مع قشرة الأرض المنصهرة واصبح بعيدا عن متناول يد البشرية، عاد ليظهر أمامي في تلك البقعة المنعزلة التي ألقتني إليها الصدفة وحملني لها القدر. هنا، حيث قُدّر لي أن أواجه مصيري. وهنا، حيث أجد نفسي الآن، محكومًا بالبقاء.

بعد أن أن توسعت قرآتي لهذا الحد، تزايد شغفي، وكأن كل حرف ألهب فضولي منذ لحظة اكتشافي للوثيقة حتى وصل الفضول إلى أوجه الآن. جئت إلى غرينلاند في الصيف، بناءً على نصيحة طبيبي، هروبًا من ضغوط الحياة. ولكن سرعان ما داهمني الملل؛ إذ لم أكن قد جلبت معي ما يكفي من الكتب، ومع كوني صيادًا قليل الحماسة، فقد فقدت متعتي بهذه الرياضة في وقت سريع. ومع غياب أي وسيلة للتسلية، وجدت نفسي أخاطر بحياتي في قارب متهالك، أبحر به بعيدًا عن رأس فارويل في أقصى جنوب غرينلاند.

غرينلاندا! يا له من اسم مليء بالسخرية لهذا المكان القاحل، لكن لا غرينلاند ولا أنا هما محور القصة. فالحكاية التي سأرويها ليست عن

هذه الأرض أو عني، لذا سأحاول التخلص من ذكر المكان ومن نفسي بأسرع ما يمكن، لأبدأ في سرد الحقيقة التي طغت على كل شيء.

وصل القارب المتهالك أخيرًا إلى ميناء محفوف بالمخاطر، حيث سارَع السكان المحليون نحوي وهم يغرقون في الماء حتى ركبهم، يتسابقون على مساعدتي في إنزالي إلى الشاطئ. حملوني إلى البر، وبينما كانوا يجهزون العشاء، تجولت على الشاطئ المليء بالصخور المحطمة. كانت أمواج البحر تبتلع الجرانيت البالي، أو ما تبقى من تكوينات صخور رأس فارويل، وبينما كنت أراقب المد المتراجع على أحد هذه السواحل الناعمة، لاحظت شيئًا غريبًا. لو شاهد أحدهم نمرًا بنغاليًا في وادي خلف حمامات بيميني، لما فاقت دهشته دهشتي حين رأيت زجاجة حرارية سعة ربع لتر، تتمايل في أمواج رأس فارويل في أقصى جنوب غرينلاند. إلتقطت الزجاجة، وأثناء ذلك ابتلّلت حتى ركبتي أثناء محاولتي، ثم جلست على الرمال وفتحت الزجاجة. وفي ضوء الشفق الطويل، قرأت المخطوطة المكتوبة بعناية، والمطوية بإحكام، التي كانت داخلها.

قرأت الفقرة الافتتاحية، وإذا كنت من أصحاب الخيال الواسع مثلي، فلن تستطيع مقاومة الرغبة في قراءة ما يلي؛ لذلك، سأعرض عليك البقية هنا، متخليًا عن الاقتباسات التي يصعب تذكرها فيما بعد. ففي غضون دقائق، لربما تنسى كل شيء عني.

منزلي في سانتا مونيكا، وأنا عضو صغير في شركة والدي المتخصصة في بناء السفن. في السنوات الأخيرة، تحولنا إلى بناء الغواصات، التي نصدرها إلى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا والولايات

المتحدة. أعرف الغواصات كما تعرف الأم وجه طفلها، فقد قدت العديد منها أثناء تجارب أدائها. ومع ذلك، كانت ميولي دائمًا نحو الطيران. تخرجت تحت إشراف كورتيس، وبعد محاولات عدة مع والدي، حصلت على إذنه للانضمام إلى السرب الفرنسي لافاييت. كنت قد تلقيت تعيينًا في خدمة الإسعاف الأمريكية، وكان من المفترض أن أسافر إلى فرنسا، لكن ثلاث صفارات حادة غيرت كل خططي في لحظات.

كنت جالسًا على سطح السفينة مع بعض الزملاء الذين كانوا سينضمون إلى خدمة الإسعاف الأمريكية، وكلبي من نوع إيرديل، «كرون برنس نوبلر»، نائم عند قدمي، عندما انطلق الإنذار الأول.

منذ دخولنا منطقة الغواصات، كانت أعيننا مشدودة نحو المناظير، وقلوبنا تنبض بالحماس والقلق معًا. كنا نندب حظنا الذي كان سيحملنا بأمان إلى فرنسا في اليوم التالي، بعيدًا عن القراصنة المخيفين. كنا شبابًا نبحث عن الإثارة، والله يعلم أننا نلناها في ذلك اليوم. ولكن، إذا قارنّا ما مررنا به في تلك اللحظات بما عشناه بعدها، سنجد أن تلك اللحظات لا تساوي شيئًا مقارنة بما جرى لاحقًا، إذ كانت كعرض بسيط لفرقة بونش آند جودي.

لن أنسى أبدًا تلك الوجوه الشاحبة للركاب وهم يركضون لارتداء سترات النجاة، رغم أنه لم يكن هناك هلع حقيقي. نهض نوبس وهو يهدر بصوت منخفض، ونهضت أنا أيضًا معه. من جانب السفينة، وعلى بعد مئتي ياردة تقريبًا، رأيت منظار غواصة يبرز من بين الأمواج، بينما كان أثر طوربيد يقترب منا بشكل واضح. كنا على متن

سفينة أمريكية، غير مسلحة بالطبع، وكاننا عاجزين تمامًا عن الدفاع عن أنفسنا. ومع ذلك، ودون تحذير، بدأنا نتعرض لقصف الطوربيد.

وقفت متجمدًا، مسحورًا، وأنا أراقب الأثر الأبيض الذي تركه الطوربيد. أصابنا في الجانب الأيمن قرب المنتصف، فاهتزت السفينة وكأن البحر نفسه قد تمزق بفعل بركان هائل. قذفنا الانفجار إلى سطح السفينة، مصابين ومشوشين، ثم ارتفع عمود من الماء مئات الأقدام في الهواء، حاملاً معه شظايا الفولاذ والخشب وأجسادًا بشرية ممزقة.

كان الصمت الذي تلى ذلك الانفجار المرعب شبه مخيف بحد ذاته، دام لحظات لا تتجاوز ثانيتين، ثم تلاه صراخ وأنين الجرحى، وشتائم الرجال وأوامر ضباط السفينة الصلبة. كم كانوا رائعين هم وطاقمهم. لم أشعر بفخر وطني كما شعرت في تلك اللحظة، ففي وسط الفوضى التي تلت استهداف السفينة، لم يفقد أي ضابط أو فرد من الطاقم رباطة جأشه أو يظهر أي ذرة من الهلع أو الخوف.

بينما كنا نحاول إنزال القوارب، ظهرت الغواصة وأصابتنا بنيران مدافعها. أمر الضابط القائد بأن ننزل علمنا، لكن كابتن السفينة رفض تنفيذ الأمر. كانت السفينة تميل بشكل مروع إلى اليمين، مما جعل القوارب على الجانب الأيسر عديمة الفائدة، بينما كانت نصف قوارب الجانب الأيمن قد دمرت بالانفجار. وأثناء تجمع الركاب على الحافة اليمنى وصعودهم إلى القوارب المتبقية، بدأت الغواصة في قصف السفينة. رأيت قذيفة تنفجر في مجموعة من النساء والأطفال، ثم حولت رأسي وغطيت عيني.

وعندما نظرت مجددًا، أُضيف إلى شعور الرعب الشعور بالندم، لأنه مع ظهور الغواصة، أدركت أنها كانت من صنع حوض بناء السفن الذي أعمل فيه. كنت أعرفها حتى إلى آخر مسمار لأنني قد أشرفت على بنائها، وجلست في برج القيادة هذا بالذات، وأمرت بالجهود المبذولة من الطاقم المرهق تحتها عندما كانت مقدمتها تكسر مياه المحيط الهادئ في ذات صيف مشرق. والآن، هذا الكائن الذي خلقته يدي وعقلي تحول إلى وحش فرانكشتاين، عازمًا على مطاردتي إلى حتفي.

انفجرت قذيفة ثانية على سطح السفينة، فأحدثت دويًا هائلًا هزّ أرجاء المكان. كان أحد القوارب، المزدحم بأعداد مرعبة، معلقًا بزاوية خطيرة على رفوفه، وأُصيبت مؤخرته بشظية من القذيفة، فانقطع الحبل الذي يثبتها. رأيت النساء والأطفال والرجال يُقذفون في البحر من القارب، وكأنهم أجساد بلا حياة، بينما كان القارب يتأرجح بسرعة من جانب واحد، غاص في المياه في خلال لحظة، ليغمر وسط الضحايا الذين كان صراخهم يدوي فوق سطح الماء.

وفي تلك اللحظات، رأيت رجالًا يقفزون إلى الحافة، ليغرقوا في المحيط بلا رحمة. كان سطح السفينة يميل بزاوية مستحيلة، كما لو كانت تحديًا للقوانين الطبيعية. ثبت نوبس بأقدامه الأربعة ليحافظ على توازنه في تلك الفوضى العارمة، ثم نظر إليّ بعينيه المملوءتين بالألم وهو يئن. انحنيت، ومسحت رأسه بحركة شبه آلية، رغم أن الألم كان يعتصرنا جميعًا في تلك اللحظة.

«هيا، يا فتى!» صرخت به، ثم اندفعت بجسدي نحو حافة

السفينة، وقفزت في الماء، غارقا في الظلام.

وعندما طفوت على سطح الماء، كان أول ما رأيته هو نوبس، يسبح حولي في حركة غير منظمة.

على بعد عدة ياردات، حين رآني، انكمشت أذنه، ثم فتح فمه مبتسمًا بإبتسامة ذات مغزى، كانت الغواصة تتراجع باتجاه الشمال، ومع ذلك وطوال الوقت ظلت تقصف القوارب المفتوحة جبهاتها، وكان ثلاثة منها محملة بالناجين. لحسن الحظ، فإن تلك القوارب الصغيرة رغم أنها أهدافًا سهلة إلى حد ما، ولكن صغرها، جنبها ضعف دقة الرماية الألمانية والكثير من الخطر. وبعد بضع دقائق، ظهرت بقعة من الدخان في الأفق الشرقي، ثم غاصت الغواصة واختفت.

استمرت قوارب النجاة في الإبتعاد عن خطر السفينة الغارقة، ورغم أنني صرخت بأعلى صوتي، لم يأتِ أحد لإنقاذي، فإما أنهم لم يسمعوا ندائي أو لم يجرؤوا على العودة. كنت أنا ونوبس قد إبتعدنا عن السفينة عندما انقلبت تمامًا وغرقت. نجونا بصعوبة بسبب قوة جذب الماء، وكدنا نغرق لولا أن ابتعدنا عدة ياردات إلى الوراء. نظرت حولي بسرعة بحثًا عن شيء أتمسك به. كانت عيناي تتبعان مكان اختفاء السفينة، حين شمع من أعماق البحر دوي انفجار مكتوم، وفجأة، قفزت نافورة هائلة من الماء، تحمل قوارب نجاة محطمة، وأجسادًا بشرية، وفحمًا، وزيتًا، وحطامًا، ثم ارتفع ذلك الحطام فوق سطح البحر كعلامة لذكرى غرق سفينة أخرى في هذه مقبرة البحر الواسعة. حينما هدأت المياه المتلاطمة قليلا، وبدأ البحر يهدأ عن قذف الحطام، تجرأت على السباحة بعيدًا باحثا عن

شيء قوي بما يكفي لدعمي ودعم نوبس. كنت قد ابتعدت كثيرًا عن مكان الحطام عندما ظهر أمامي قارب نجاة، يطفو على سطح البحر وكأن موجات المحيط قد ألقت به فجأة، ثم ارتطم بالقاع مع دوي هائل. لابد أن هذا القارب كان قد جُرّ بعيدًا عن السفينة الأم، وكان مربوطًا بحبل انفصل أخيرًا بسبب جذب الماء الكبير الواقع عليه. هذا الحدث، دون شك، كان سببا في إنقاذ حياتي وحياة شخص آخر عزيز على قلبي. ورغم أن مصيرًا أكثر فظاعة كان ينتظرنا في ذلك اليوم، فقد جعلني هذا الحادث ألتقي بهذة العزيزة، التي ما كنت لأعرفها لولا هذا الموقف. قابلتها، وأحببتاه. على الأقل، عشت تلك السعادة العظيمة في حياتي، ولا شيء، حتى كاسباك بكل رعبها، يمكن أن يمحو هذه الذكرى.

لم أرَ قط مثل هذه الملامح المثالية، ذلك التشكيل الإلهي الذي كان في آن واحد إنسانيًا – إنسانيًا للغاية. كان وجهها مشبعًا بالشخصية، وبالقوة، والأنوثة – وجهٌ وُجد ليُحَبّ ويحب. كانا خديها محمرّين بلون الحياة، والصحة، والحيوية، ومع ذلك كانت ممددة على صدر البحر، تبدو ميتة. شعرت بشيء يعصر حلقي وأنا أتمعن في تلك الرؤية المتألقة، وأقسمت في نفسي أنني سأعيش لأنتقم لمقتلها.

ثم سمحت لعيني بالانزلاق مرة أخرى نحو الوجه العائم على الماء، وما إن رأيته حتى كاد أن يطوحني إلى البحر. لقد تفتحت عيونها الميتة، وتفرقت شفتاها، ثم رفعت يدها نحوي وطلبت النجاة في صمت. هي على قيد الحياة! لم تكن ميتة! انحنيت بسرعة على حافة القارب، وسحبتها إلى الأمان النسبي الذي منّ الله به علي. أزلت حزام النجاة عنها وخلعت معطفي المبلل، وصنعت لها وسادة من

ملابسي. فركت يديها وذراعيها وقدميها. عملت على إنعاشها لمدة ساعة كاملة، وفي النهاية، جاءت مكافأتي بتنهيدة عميقة، وفتحت عيونها الواسعة مجددًا، ونظرت إليّ. عندها شعرت بإحراج عميق. لم أكن من الرجال الذين يهتمون بالنساء؛ ففي «ليلاند-ستانفورد» كنت مثار سخرية بسبب خجلي الظاهر في حضور الفتيات الجميلات، برغم أن الرجال كانوا يقدرونني. أثناء ما كنت أفرك يدها فتحت عينيها، وأسقطتها كما لو كانت مسمارًا محقى وهي تنظر إليّ ببطء، من رأسي حتى قدمي، ثم تجولت عيناها حول الأفق، الذي كان يحيط به حواف القارب المرتفعة والمنخفضة. نظرت إلى ملامح وجه «نوبس» بتراخ، ثم عادت عيناها إلى عيني، وهي مليئة بالتساؤلات.

«أ... أ... أنا...» تلعثمت، وابتعدت بخطوات مرتبكة، متعثرًا فوق الحاجز القريب. ارتسمت على شفتي ابتسامة شاحبة، كأنها تحمل في طياتها ثقل ما لم أستطع قوله.

«نعم يا سيدي!» جاء ردها بصوت خافت بالكاد يُسمع، وانخفضت زوايا شفتيها ثانية، بينما انسابت رموشها الطويلة كريشة تمسح بلطف وجهها النقي كلوحة خالية من الشوائب.

قلت بصعوبة، وكأن الكلمات تقاوم الخروج: «أتمنى أن تكوني بخير الآن.»

رفعت عينيها بعد لحظة صمت وقالت: «هل تعلم؟ لقد كنت مستيقظة طوال الوقت، لكنني لم أجرؤ على فتح عيني. كنت أظن أنني ميتة، وخفت أن أنظر فلا أرى سوى الظلام. الموت يخيفني!

أخبرني، ما الذي حدث بعد غرق السفينة؟» توقفت للحظة، وكأن الذكرى تثقل كاهلها. «أتذكر كل شيء... كل شيء قبل ذلك. آه، كم تمنيت أن أنساه!» انكسر صوتها تحت وطأة دموعها، لكنها سرعان ما تابعت، وكأن كلماتها تحارب صمتها: «الوحوش! كنت على وشك الزواج بأحد الضباط في البحرية الألمانية.»

ثم استأنفت حديثها دون توقف، كأنها تطارد نفسها عبر الكلمات: «غرقنا، غرقنا، غرقنا. شعرت أن الغرق لا نهاية له، كأنني عالقة في هاوية بلا قاع. لم أشعر بأي ألم حتى بدأت أرتفع فجأة، أسرع فأسرع، وكأن هناك يدًا خفية تنتشلني بقوة. عندها شعرت أن رئتي ستنفجران، ثم... لا أذكر شيئًا، لا شيء سوى الفراغ، حتى سمعت صخبًا من الشتائم ضد ألمانيا والألمان. عندها فقط فتحت عيني. أخبرني، من فضلك، ما الذي حدث بعد غرق السفينة؟»

أخبرتها بكل ما شهدته، بالأحرى بكل ما استطعت استحضاره من كلمات، عن الغواصة التي قصفت القوارب المفتوحة وعن الفوضى التي أحاطتنا. كان من العجيب أننا نجونا بتلك الطريقة، كأن العناية الإلهية قد اختارت أن تحمينا، وعلى طرف لساني كان يقبع خطاب جميل عن الحياة والمصير، لكنني افتقدت الشجاعة لإلقائه.

اقترب «نوبس» بفضوله المعتاد، ودفع أنفه نحوها مقتربا جدا منها. ابتسمت بحنو ومسحت على وجهه الذي لا يمكن وصفه بالجميل، ثم انحنت فجأة لتضع خدها على جبهته. شعرت بغيرة غريبة، فأنا لطالما أحببت نوبس، لكن تلك اللحظة جعلتني لأول مرة أتمنى أن أكون مكانه. تساءلت كيف يتعامل الكلب مع هذا الاهتمام

الأنثوي؛ فهو لا يعرف النساء كما أعرفهن أنا. لكنه، كعادته، تقبّل الأمر بعفوية، وكأنما كان ينتظر هذا الحنان منذ الأزل. وقف هناك، مغمض العينين، مستمتعًا برؤية كل لمسة، متقمصًا أرقى تعابير «السكر الذي لا يذوب في فمي.» فجعلتني المراقبة أشتعل غيرة.

قلت «يبدو أنك تحبين الكلاب.»

ردّت بهدوء: «أنا أحب هذا الكلب.»

لم أعلم إن كان ردها يحمل معنى خاصًا، لكنني أخذته على محمل شخصي. لا أنكر أنني شعرت بشيء دافئ يتسلل إلى صدري، في ذلك الامتداد الشاسع من العزلة، كان من الطبيعي أن نتعرف على بعضنا بسرعة. قضينا الوقت نراقب الأفق بلا توقف، نتخيل طيفًا من الدخان أو سفينة تأتي للإنقاذ، لكن الليل غطانا بظلامه، ولم يظهر في المياه حتى نقطة ضوء واحدة.

كنا عطشى وجائعين ومنهكين، والبرد يزحف إلى عظامنا. لم تكن ملابسنا المبللة سوى عبء آخر فوق أجسادنا. كنت مدركًا أن البرد قد يكون قاتلًا للفتاة، إذ كانت بلا دفء ولا طعام يقيها. قمت بإفراغ القارب من الماء بيدي العاريتين، ثم مسحت ما تبقى بمنديل صغير، محاولة شاقة لكنها ضرورية. وهكذا، صنعت لها مساحة جافة نسبيًا في قاع القارب، حيث وفّرت جوانب القارب بعض الحماية من الرياح الليلية القارسة.

عندما استلقت أخيرًا، منهكة شبه غائبة عن الوعي، خلعت معطفي المبلل ووضعته عليها، في محاولة بائسة لتخفيف البرد الذي كانت ترتجف بسببه. في ضوء القمر الذي تسلل عبر الليل، رأيت كيف كان

جسدها النحيل يرتجف بلا توقف.

«لا يمكنك قضاء الليل هكذا،» قلت قلقًا. «هل يمكنني فعل أي شيء؟ هل لديك أي فكرة؟»

هزّت رأسها بهدوء، ثم قالت بعد صمت:«علينا أن نتحمل الأمر.»

بدا صوتها وكأنه يحمل إرادة أكبر من جسدها الواهن، لكنه زاد من شعوري بالعجز. استلقى «نوبس» بجانبي، ظهره مستند إلى ساقي، بينما جلست غارقًا في عذاب صامت. كان قلبي يعتصره الخوف، إذ أدركت أن الموت قد يسبق الصباح إليها. ما واجهته من صدمة وتهديد كان كافيًا لإسقاط أي إنسان، ناهيك عن جسدها الصغير الهش. راقبتها بعينين مثقلتين بالقلق، وفجأة شعرت بشيء جديد يتولد في أعماقي، إحساس لم أعرفه من قبل لكنه استوطنني بقوة. كان شغفًا، أقرب إلى الحُمى، لإيجاد طريقة تحافظ على دمها المتجمد حيًا. كنت أنا نفسي أشعر بالبرد، رغم أنني نسيت ذلك للحظة، حتى تحرك «نوبس» على ساقي، فتسلل البرد إليها. عندها فقط أدركت أن دفء جسده كان يحجب عني قسوة الليل، وكأن شعاعًا من الإلهام اخترق عقلي، انبثقت فكرة لإنقاذها. ركعت بجانبها على الفور، لكن خجلًا مفاجئًا كبلني. هل ستسمح لي؟ وهل أملك الشجاعة لاقتراح شيء كهذا؟ ثم رأيتها ترتجف بعنف، عضلاتها تتشنج تحت وطأة البرد القاسي، وكأن الحياة تنسحب منها ببطء. دفعت الحياء جانبًا، واندفعت بجانبها، وضغطت جسدها إلى صدري.

فزعت، وتراجعت بسرعة، صارخة بصوت صغير مفعم بالرعب. حاولت دفعني بعيدًا عنها، لكنني تمسكت بهدوئي وقلت بتلعثم:

«اغفري لي... إنها الطريقة الوحيدة. ستفقدين حياتك إذا لم تدفئي، وأنا ونوبس الوسيلتان الوحيدتان المتاحتان الآن.»

ثم ضممتها بحزم، منادياً «نوبس» ليشارك في إنقاذها. استلقى الكلب خلفها، وكونّا معًا درعًا من الدفء حول جسدها المرتجف. توقفت عن المقاومة، وكأنها استوعبت قصدي، لكنها لم تستطع منع دموعها. شهقت مرتين أو ثلاثًا، ثم بدأت تبكي بهدوء، كأنما تكسر حاجز الخوف. دفنت وجهها في ذراعي، ومن ثم استسلمت للنوم، تاركة خلفها عاصفةً من المشاعر التي اجتاحتني في صمت الليل.

الفصل الثاني

مع انبلاج الفجر، بدا أنني قد غفوت رغم شعوري وكأن ليالٍ متصلة مرت دون أن أذوق طعم الراحة. حين فتحت عيني، كان النهار قد أشرق، وشعرت بخصلات شعرها تلامس وجهي برفق، بينما أنفاسها المنتظمة تعلن عودتها إلى الحياة. رفعت بصري نحو السماء، وأغمضت عيني لثوانٍ، شاكرًا الله على وجودها.

أثناء الليل، كانت قد أدارت رأسها، وعندما استيقظت، وجدت وجهها قريبًا جدًا من وجهي، حتى أن أنفاسي التقت بأنفاسها، وشفتي كادت تلامس شفتيها. شعرت بارتباكٍ سرعان ما طغى عليه شعور بالراحة، كأن الحياة تضع بين يديّ معجزة صغيرة. نوبس كان أول من كسر الصمت. نهض بتكاسل، وتمدد، ثم دار حول نفسه بضع مرات قبل أن يستلقي من جديد. تلك الحركة كانت كافية لتوقظها، ففتحت عينيها ببطء، تطلعت نحوي، واتسعت حدقتاها بدهشة خافتة قبل أن تبتسم ابتسامة رقيقة تُشبه شعاع الصباح الأول.

قالت بصوت ناعم وأنا أمد يدي لمساعدتها على النهوض، رغم شعوري بأنني من يحتاج للمساعدة أكثر منها:

«لقد كنتَ طيبًا جدًا معي.»

لم تضف شيئًا آخر، لكن كلماتها كانت كافية. كنت أعلم أنها ممتنة، رغم أنها اختارت ألا تخوض في الحديث عن الليلة الماضية، وكأنها أرادت دفن تفاصيلها المحرجة تحت ثقل الصمت.

مع إشراقة الشمس الأولى، لاحظت عمود دخان يتصاعد في

الأفق. حدقت فيه بترقب، ثم بدأت أميز ملامح سفينة تقترب ببطء، تجر خلفها السفن الشراعية نحو الموانئ. نهضت واقفًا على الحاجز، رفعت معطفي المبلل عاليًا فوق رأسي، مشيرًا بذعر ممزوج بالأمل. أما نوبس، فقفز إلى حاجز آخر وبدأ ينبح بنبرة حادة كأنه يشاركنا نداء النجاة. جلست الفتاة عند قدمي، وعيناها لا تفارقان القارب القادم.

بعد لحظات، همست بصوت يحمل ارتعاشة فرح:

«إنهم يروننا. هناك رجل يرد على إشارتك.»

وكانت على حق. رأيت أحد البحارة يلوح لنا من بعيد. في تلك اللحظة، شعرت بشيء يتصاعد في صدري، كتلة عالقة في حلقي، لكنها لم تكن من أجلي. كان شعوري كله من أجلها. لقد تم إنقاذها في الوقت المناسب، في آخر لحظة ممكنة. لو تأخروا، لما استطاعت النجاة ليوم آخر. بقيت جالسًا أراقب السفينة وهي تقترب، بينما هي تنظر إليه بعينين تحملان وعدًا بالحياة، وكأن النجاة كانت تستجيب لنداء قلبها. في تلك اللحظة، أدركت أن القدر قد منحنا فرصة جديدة، وسط بحرٍ يهدد بابتلاع كل شيء.

اقتربت السفينة منا وألقى أحد البحارة حبلًا امتد نحونا كحبل نجاة. امتدت أيدٍ قوية، عازمة على إنقاذنا، ورفعتنا إلى السطح. تسلق «نوبس» برشاقة ودون مساعدة، بينما أحاط الرجال بالفتاة بحنان لم أتوقعه من أشخاص قستهم أمواج البحر. عاملها أولئك الرجال الخشنون بلطف أمهات خائفات على صغيراتهن.

بينما كانوا يطرحون علينا أسئلة متلاحقة، أسرعوا بها إلى غرفة

القبطان، وأخذوني إلى غرفة البخار. هناك، طلبوا من الفتاة أن تتخلص من ملابسها المبللة وتتركها خارج الباب لتجف، ثم تستلقي في سرير القبطان للاحتماء من البرد. أما أنا، فلم أحتج إلى توجيه. حالما دخلت دفء غرفة البخار، خلعت ملابسي المبللة دون تردد. علقتها حيث يمكنها أن تجف بسرعة، ثم استسلمت لحرارة الغرفة التي اخترقت برودة عظامي.

قدموا لنا حساءً ساخنًا وقهوة، وبينما كنا نأكل، جلس البحارة الذين أنهوا نوباتهم يشتمون القيصر وأعوانه، كأن الحرب نفسها قد دخلت الغرفة. مع دفء الغرفة والطعام الذي أعاد الحياة إلى أجسادنا المنهكة، شعرت براحة لم أذقها منذ اللحظة التي قطعت فيها تلك الصفارات الثلاثة هدوء عالمي في ظهيرة اليوم السابق.

لكن السلام في القنال كان دائمًا عابرًا منذ أغسطس 1914، وسرعان ما أثبتت تلك الحقيقة نفسها من جديد. بالكاد جفّت ملابسنا وارتديناها كما طُلب منا، إذ كانت احتمالات مواجهة العدو دائمًا قائمة في تلك المياه المضطربة. صعدت إلى سطح السفينة لأعيد ملابس الفتاة الجافة إلى غرفة القبطان. فجأة، سمعت أوامر صارمة في غرفة المحركات: «السرعة القصوى!» ثم أعقب ذلك صوت دوي مدفع حاد، كأنه شق صمت البحر إلى نصفين.

ركضت إلى السطح، حيث وقفت مشدوهًا أمام المشهد الذي انكشف أمامي، غواصة العدو كانت على بعد مئتي ياردة فقط من مقدمة السفينة ومدفعيتها موجهة نحونا، وقد أطلقت تحذيرها الأول. أمرتنا بالتوقف، لكن قائد السفينة، بعزيمة لا تلين، تجاهل

الأمر. أطلقت الغواصة طلقتها الثانية، وأصابت سطح الكابينة بدقة قاتلة، كأنها تخبر قائدنا العنيد أن وقت العصيان قد انتهى.

أعلن البحر، مرة أخرى، أن الهدوء فيه لا يدوم طويلاً، وأننا دائمًا على حافة العاصفة. ومرة أخرى، أمر قائد السفينة بتقليل السرعة. توقفت الغواصة عن إطلاق النار وطلبت منا تغيير الاتجاه والتوجه نحوها. كانت سرعتنا قد دفعتنا قليلاً وراء السفينة المعادية، لكننا بدأنا الآن في المناورة لتقليص المسافة بيننا وبينها. بينما كنت أراقب بحذر، شعرت بشيء يلامس كوعي. التفت لأجد الفتاة تقف إلى جانبي، نظرت إلي بعينين حزينتان وقالت بصوت خافت: «يبدو أنهم عازمون على تدميرنا، وكأن نفس القارب الذي أغرقنا بالأمس عاد ليهددنا.»

أجبت: «نعم, أعرف الغواصة جيدًا. ساعدت في تصميمها وشاركت في أول رحلة لها.»

تراجعت الفتاة، بعد أن صدمتها خيبة الأمل وقالت: «كنت أظنك أمريكيًا, لم أكن أعلم أنك... أنك...»

أجبتها: «لست كذلك, إن الأمريكيون يصنعون الغواصات لجميع الأمم منذ سنوات. ولكن، لو كنا قد أفلسنا، أنا ووالدي، قبل أن نصنع ذلك الوحش، لكان أفضل.»

كنا نقترب من الغواصة الآن بسرعة. بدا لي أنني أستطيع تمييز ملامح الرجال على سطحها. تقدم أحد البحارة إلى جانبي، ومدّ لي شيئًا صلبًا وباردًا في يدي. لم أحتج للنظر لأعرف أنه مسدس ثقيل. وقال بإختصار «خذه واستخدمه»

كان قائد السفينة يتجه مباشرة نحو الغواصة، وفي تلك اللحظة، وصلني الأمر إلى غرفة المحرك للتوجه بأقصى سرعة. فهمت فورًا شجاعة قائد السفينة الإنجليزي وأنه ينوي الاصطدام بالغواصة التي تزن خمسمائة طن رغم مدفعها الموجه نحونا. بالكاد استطعت كبح هتاف إعجابي. في البداية، بدا أن الألمان لم يفهموا نية القائد. على ما يبدو، اعتقدوا أنهم يشهدون عرضًا لسوء الملاحة، فصرخوا بأوامر للسفينة لتقليل السرعة وتوجيه الدفّة نحو اليسار.

كنا على بعد خمسين قدمًا منهم عندما أدركوا التهديد الذي تشكله مناورتنا المتعمدة. كان طاقم المدفع غير مستعد، ولكنهم اندفعوا إلى مواقعهم وأطلقوا قذيفة فوق رؤوسنا. قفز نوبس ينبح بغضب، فأمر قائد السفينة: «دعهم يواجهونها!» وبسرعة، انطلقت الرصاصات من المسدسات والبنادق على سطح الغواصة. سقط اثنان من طاقم المدفع، بينما وجه الآخرون مدفعهم نحو خط الماء للسفينة القادمة. وأجابهم رجال السطح بإطلاق النار نحو قائدنا.

دفعت الرجل بسرعة عبر السلم المؤدي إلى غرفة المحرك، ثم رفعت مسدسي وأطلقت أول طلقة على أحد الألمان. ما حدث بعد ذلك جرى بسرعة بحيث تداخلت التفاصيل في ذاكرتي. رأيت الربّان يندفع نحو العجلة، وهو يديرها بسرعة ليغير مسار السفينة، وكنت على يقين أن جهودنا قد تذهب سدى، فقد قرر القدر أن يكون هذا الرجل هو أول من يسقط برصاص العدو. رأيت طاقم المدفع في الغواصة يطلقون قذيفتهم، وشعرت بانفجارها ثم سمعت دوي الانفجار وهو يصيب قوسنا.

كنت أشهد ذلك وأعيه حينما قفزت إلى غرفة القيادة وأمسكت العجلة، واقفًا فوق جثة الربّان. بكل قوتي، دفعت العجلة إلى اليمين، لكن الأوان كان قد فات لتحقيق هدف قائدنا. كان أفضل ما استطعت فعله هو أن أسحب السفينة بجانب الغواصة. سمعت صراخًا في غرفة المحرك؛ اهتزت السفينة بشدة جراء التبديل المفاجئ في المحركات، وزادت سرعتنا.

ثم رأيت ما كان يخطط له الربّان المجنون منذ أن فشل مخططه الأول. بأمر صاخب، قفز إلى سطح الغواصة الزلق، وعليه أتى طاقمه القوي. قفزت من بيت الملاحين وتبعتهم، رغم البرد القارس الذي ملأ الأجواء. من غرفة المحركات، خرج المهندسون والعمال، ومعًا قفزنا بعد أن توازن الطاقم، لنتلاحم في قتال يدوي على سطح السفينة المبلل بالدماء الحمراء. إلى جانبي جاء نوبس وهو صامت وحزين.

خرج الألمان من الفتحات المهيئة للمشاركة في المعركة على السطح. في البداية، تصاعدت أصوات المسدسات وسط لعنات الرجال وأوامر القائد بصوت عالٍ. ومع ذلك، تداخلنا بشكل عشوائي، مما جعل من الصعب استخدام أسلحتنا النارية، واشتعلت المعركة في صراع مباشر للأجل السيطرة على السطح.

كان هدف كل واحد منا هو إلقاء العدو في البحر. لن أنسى أبدًا التعبير المشوه على وجه الجندي الذي واجهني. أنزل رأسه وهرع نحوي، وهو يصرخ كالثور. قمت بخطوة جانبية وتملصت من ذراعيه الممدودتين، وعندما استدار ليواجهني مرة أخرى، وجهت ضربة إلى ذقنه، مما جعله يترنح نحو حافة السطح. رأيت مساعيه اليائسة

لاستعادة توازنه، حتى سقط إلى البحر، متأرجحًا في الماء.

حملني العدو نحو جانب الغواصة، حيث كانت السفينة لا تزال تصطدم به بعنف. لم أفكر في خطر أن أحشر بين الاثنين حتى رأيت الفتاة، وحيدة، واقفة على سطح السفينة. كانت مؤخرة السفينة ترتفع في الهواء بينما كانت واجهتها تغمر بسرعة نحو البحر، ورأيت الموت يلتف حول ثوب المرأة التي اكتشفت الآن أنني أحبها.

في لحظة تكاد تكون خالية من الزمن، سمعت زئيرًا غاضبًا خلفنا، يختلط مع صرخة ألم وغضب من العملاق الذي كان يحملني. على الفور، تراجع إلى السطح، وعندما فعل، أخرج ذراعيه لينقذ نفسه، مما حررني. سقطت عليه بقوة، لكنني كنت على قدمي في اللحظة نفسها. بينما نهضت، لمحت خصمي ملقى، ولن يهددني مجددًا، فقد أغلق فك نوبس الكبير على حلقه. ثم قفزت نحو حافة السطح الأقرب إلى الفتاة على السفينة الغارقة.

«اقفزي!» صرخت. «اقفزي!» ومددت يدي إليها. وكأنها كانت تثق تمامًا في قدرتي على إنقاذها، قفزت من فوق حافة السفينة إلى جانب الغواصة الزلق. مددت يدي لأمسك بها، لكن في نفس اللحظة، وجهت السفينة مؤخرها نحو السماء وغرقت في البحر. فاتني أن أمسك يدها بفارق جزء من بوصة، ورأيتها تنزلق إلى البحر. لكن لم يمض وقت طويل حتى كنت وراءها مباشرة.

جذبتنا السفينة الغارقة بعيدًا تحت سطح البحر، ولكنني تمكنت من الإمساك بها في اللحظة التي دخلت فيها الماء. نزلنا معًا إلى الأعماق، ثم ارتفعنا معًا على بعد بضعة ياردات من الغواصة. أول ما

سمعته كان نباح نوبس الغاضب، يبدو أنه كان قلقا ويبحث عني. نظرت إلى سطح السفينة، فاطمأنت إلى أن المعركة قد انتهت. لقد حققنا النصر، إذ رأيت الناجين منا يتسلطون على عدد من الجنود الألمان تحت تهديد المسدسات، بينما كان بقية الطاقم يخرجون من جوف السفينة واحدًا تلو الآخر، يصطفون على سطحها مع الأسرى الآخرين.

بينما كنت أسبح نحو الغواصة برفقة الفتاة، لفت نباح نوبس المستمر انتباه بعض أفراد طاقم السفينة، وعندما وصلنا إلى جانب السفينة، امتدت أيدٍ لتمد لنا العون في الصعود. سألت الفتاة إن كانت قد أصيبت، فأكدت لي أنها لم تتأذَ فقد ابتلت من قبل دون أذى أيضا، ولذا لم تبدُ عليها أي علامات صدمة. كنت على وشك أن أكتشف بنفسي أن هذه المخلوقة النحيلة، التي بدا عليها الضعف، كانت تحمل قلبًا شجاعًا وروح محارب لولا أن إجابتها كشفت عن نفسها.

عندما انضممنا إلى باقي أفراد مجموعتنا، رأيت مساعد السفينة وهو يتفقد الناجين. تبين أن عددنا لا يتجاوز العشرة، باستثناء الفتاة. فقدنا قائدنا الشجاع، بالإضافة إلى ثمانية آخرين. كان عددنا في الهجوم تسعة عشر، تمكنّا من القضاء على ستة عشر ألمانيًا، وأسرنا تسعة، بينهم القائد. أما الملازم، فقد لقي حتفه.

قال برادلي، مساعد السفينة، وهو يختتم التعداد: «ليس سيئًا لهذا اليوم». وأضاف: «فقدان القائد هو الأسوأ. كان رجلًا عظيمًا، حقًا رجلًا عظيمًا».

كان أولسون، المهندس الأيرلندي للسفينة، يقف بجانبنا، فقال:

«نعم، ما قمنا به اليوم كان شجاعًا، لكن ماذا سنفعل الآن بعد أن انتهينا من المهمة؟»

أجاب برادلي وهو يقهقه: «سنأخذها إلى أقرب ميناء إنجليزي، ثم نذهب جميعًا إلى الشاطئ لنحصل على ميداليات فكتوريا.»

استفسر أولسون: «كيف ستقودها؟ لا يمكنك أن تثق في هؤلاء الهولنديين.»

حك برادلي رأسه قائلاً: «أنت محق، أنا لا أعرف شيئًا عن الغواصات.»

أجبتهم: «أنا أعرف، بل أعرف أكثر عن هذه الغواصة من الضابط الذي كان يقودها.»

نظرا إلي بدهشة، فكان علي أن أشرح لهما مرة أخرى كما شرحت للفتاة. كان برادلي وأولسون سعيدين بذلك، وتم تعييني قائدًا على الفور. وكان أول ما فعلته أن نزلت مع أولسون لتفقد السفينة بعناية، بحثًا عن ألمان مختبئين أو معدات تالفة. لم نجد ألمانًا في الأسفل، وكل شيء كان سليمًا وفي حالة جيدة. ثم أمرت الجميع بالنزول باستثناء رجل واحد ليظل في السطح كحارس.

أثناء استجواب الألمان، اكتشفت أن الجميع باستثناء القائد كانوا مستعدين لاستئناف مهامهم والمساعدة في إيصال السفينة إلى ميناء إنجليزي. كانوا، على ما يبدو، مرتاحين لفكرة احتجازهم في معسكر أسرى حرب إنجليزي بعد المعاناة التي مروا بها. أما القائد، فقد أكد لي أنه لن يشارك في تسليم سفينته.

لذلك، كان الخيار الوحيد هو تقييد هذا الرجل بالحديد. بينما كنا نستعد لتنفيذ ذلك، نزلت الفتاة من السطح. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها كل من الفتاة والضابط الألماني وجه الآخر منذ أن صعدنا إلى الغواصة. كنت أساعد الفتاة في النزول من السلم، ولا أزال ممسكًا بذراعها-ربما بعد أن لم يعد ذلك ضروريًا-عندما نظرت الفتاة مباشرة إلى وجه الضابط. صرخ كل منهما في مفاجأة ودهشة.

«ليزا!» صرخ الضابط، واتخذ خطوة نحوها.

اتسعت عينا الفتاة، وامتلأت بفظاعة شديدة، بينما تراجعت إلى الوراء. ثم تجمدت هيئتها، ووقفت منتصبة كالجندي، وبذقن مرفوع، ومن دون أن تنطق بكلمة، استدارت وظهرت ظهرها للضابط.

أمرت الرجلين اللذين كانا يحرسونه «خذوه بعيدًا واربطوه بالحديد». ومع مغادرته، رفعت الفتاة عينيها نحوي وقالت بصوتٍ مخنوق: «إنه الألماني الذي حدثتك عنه. إنه البارون فون شونفورتس.» أومأت برأسي صامتًا. لقد أحبّته! تساءلت في أعماق نفسي إن كانت لا تزال تحتفظ في قلبها بنفس المشاعر. اجتاحتني غيرة مفاجئة، وكراهية شديدة تجاه البارون فريدريش فون شونفورتس، حتى شعرت بنشوة في هذا العداء. لكن لم يكن لدي وقت للاحتفاء بهذا الشعور، إذ سرعان ما ظهر الحارس من فتحة السطح ليخبرنا بوجود دخان في الأفق، أمامنا تمامًا. توجهت إلى السطح للتحقق، وتبعني برادلي. قال : «إذا كانت السفينة ودية، سنتحدث معهم. وإذا لم تكن كذلك، سنغرقها، أليس كذلك، أيها القائد؟» «نعم، أيها الملازم»، أجبت، وكان من واجبه أن يبتسم.

رفعنا علم الاتحاد وبقينا على السطح، بينما طلبت من برادلي النزول لتوزيع المهام على الطاقم، مع وضع إنجليزي مسلح بمسدس بجانب كل ألماني.

أمرت: «نصف السرعة للأمام.» ثم اقتربنا بسرعة من السفينة المجهولة، حتى بدا لي بوضوح العلم الأحمر لأسطول التجارة البريطاني. شعرت بفخر عميق حين فكرت أن البحارة البريطانيين سيهنئوننا على انتصارنا. وفي تلك اللحظة، لابد أن السفينة التجارية قد رأتنا، فمالت فجأة نحو الشمال، وفي لحظة أخرى انفجر الدخان من مدخنيها. ثم، وهي تتبع مسارًا متعرجًا، هربت منا كما لو أننا وباء الطاعون. غيرنا مسار الغواصة وبدأنا مطاردتها، لكن السفينة كانت أسرع منا، وتركتنا وراءها بسرعة. ابتسمت ابتسامة مريرة وأمرت بالعودة إلى مسارنا الأصلي. انطلقنا مجددًا نحو إنجلترا، ولكن مضت ثلاثة أشهر ولا زلنا لم نصل بعد، ولا يبدو أن هناك أملًا في وصولنا قريبًا. لابد أن السفينة التي رأيناها قد أرسلت تحذيرًا عبر اللاسلكي، لأنه بعد نصف ساعة فقط، شاهدنا دخانًا آخر في الأفق. هذه المرة كانت السفينة تحمل العلم الأبيض للبحرية الملكية، وكانت مجهزة بالمدافع. لم تبتعد، بل اندفعت نحونا بسرعة. كنت على وشك إرسال إشارة لها، عندما انطلقت شعلة من مقدمتها، وبعد لحظة انفجرت قذيفة في الماء أمامنا. كان برادلي قد صعد إلى السطح ووقف بجانبي وقال: «قذيفة أخرى مثل هذه، وستحصل على مسافة أقرب لضربنا» ثم أضاف «يبدو أنها لا تكترث لعلم الاتحاد.» مرت قذيفة ثانية فوقنا، فأمرت بتغيير الاتجاه، وفي الوقت نفسه طلبت من برادلي النزول لإعطاء الأمر بالغمر. مررت بنوبس إليه، ثم

تبعته وأغلقت الفتحة بإحكام. شعرت أن خزانات الغمر كانت تملأ ببطء شديد. سمعنا انفجارًا مدويًا بدا وكأنه مباشرة فوقنا؛ اهتزت الغواصة جراء الصدمة التي ألقت بنا جميعًا على الأرض. كنت أتوقع أن أشعر بتدفق المياه إلينا في أي لحظة، لكن لم يحدث شيء. بدلاً من ذلك، استمررنا في الغمر حتى سجل جهاز قياس العمق أربعين قدمًا، وعرفت حينها أننا في أمان. في أمان! كدت أبتسم. كنت قد استبدلت أولسون، الذي بقي في البرج بناءً على توجيهي، وكان قد خدم في واحدة من أولى فرق الغواصات البريطانية، ولذلك كان لديه بعض الخبرة في هذا المجال. كان برادلي بجانبي. نظر إليّ بدهشة. وسأل «ماذا سنفعل؟ السفينة التجارية ستفر منا، والسفينة الحربية ستدمرنا؛ ولا أيٌ منهما سيصدق ألواننا أو يعطينا فرصة للتفسير. إذا ذهبنا إلى ميناء بريطاني، سيكون استقبالنا أسوأ، الألغام والشباك وكل شيء. لا يمكننا المخاطرة بذلك.» أجبته : «لنحاول مجددًا عندما نفقد هذا الشخص من أثرنا، لابد وأن نجد هناك سفينة ستصدقنا.» وبالفعل، جربنا مرة أخرى، ثم كدنا أن نُصدم من قبل سفينة شحن ضخمة. بعد ذلك، أُطلقت النار علينا من مدمرة، وتحولت سفينتان تجاريتان وهربتا عند اقترابنا. طوال يومين، أبحرنا في القناة محاولين إخبار من يستمع أننا أصدقاء، ولكن لم يستمع أحد. بعد مواجهتنا مع السفينة الحربية الأولى، أعطيت تعليمات لإرسال رسالة لاسلكية تشرح وضعنا، لكن للأسف اكتشفت أن أجهزة الإرسال والاستقبال قد اختفت.

أرسل لي فون شونفورتس رسالة تقول: «هناك مكان واحد فقط يمكنك الذهاب إليه وهو كيل. لا يمكنك التوقف في أي مكان آخر

في هذه المياه. إذا أردت، يمكنني أن آخذك إلى كيل، وأعدك بأنك ستعامل بشكل جيد.» أرسلت ردي: «هناك مكان آخر يمكننا الذهاب إليه، وسنذهب إليه قبل أن نذهب إلى ألمانيا. ذلك المكان هو الجحيم.»

الفصل الثالث

كانت تلك أيامًا مشحونة بالقلق، حيث لم تتح لي الفرصة لقضاء الكثير من الوقت مع ليس. أعطيتها غرفة القائد، بينما احتفظت أنا وبرادلي بغرفة ضابط السطح، في حين شغل أولسون واثنان من أفضل رجالنا الغرفة المخصصة عادة للضباط الصغار. وضعت سرير نوبس في غرفة ليس، لأنني كنت أعلم أنها ستشعر بوحدة أقل.

مرّت فترة بعد مغادرتنا المياه البريطانية لم يحدث فيها شيء مهم. كنا نبحر بثبات على السطح، محققين تقدمًا جيدًا. السفينتان اللتان رصدناهما ابتعدتا بأقصى سرعة، أما السفينة الثالثة، وهي سفينة شحن ضخمة، فقد أطلقت علينا النار، مما أجبرنا على الغمر. من هنا بدأت مشكلاتنا. في الصباح، تعطل أحد محركات الديزل، وأثناء العمل على إصلاحه، بدأ خزان الغمر الأمامي اليساري في الامتلاء. كنت على السطح حين لاحظت الميل التدريجي للسفينة. فورًا، أدركت ما كان يحدث، فركضت نحو الفتحة، وأغلقتها فوق رأسي، ثم نزلت إلى المركز. في تلك اللحظة، كانت السفينة تغرق من المقدمة وتميل بشكل غير مريح نحو اليسار. لم أنتظر نقل الأوامر، بل جريت بأقصى سرعة نحو الصمام الذي يسمح للمياه بالدخول إلى الخزان الأمامي اليساري. كان الصمام مفتوحًا بالكامل. إغلاقه وتشغيل المضخة لتفريغه لم يستغرق أكثر من دقيقة، لكننا كدنا نواجه كارثة.

كنت على يقين أن الصمام لم يُفتح من تلقاء نفسه. هناك شخصًا ما قد فتحه شخص مستعد للموت إذا كان في ذلك موتنا جميعًا.

بعد ذلك، قررت أن أبقي حارسًا يطوف على طول السفينة الضيقة. عملنا على المحرك طوال اليوم والليلة ونصف اليوم التالي. معظم الوقت كنا ننجرف ببطء على السطح، لكن في الظهيرة رصدنا دخانًا في الغرب. وبما أننا لم نجد في العالم سوى الأعداء، أمرت بتشغيل المحرك الآخر لنتجنب مسار السفينة القادمة. ولكن، بمجرد أن بدأ المحرك في الدوران، سمعنا صوت احتكاك معدني، وعندما أوقفناه اكتشفنا أن شخصًا قد وضع شفرة باردة في أحد التروس. استغرقنا يومين آخرين حتى أصبحنا جاهزين للتحرك ببطء، بعد أن تم إصلاح بعض الأجزاء. في الليلة التي سبقت اكتمال الإصلاحات، جاء الحارس إلى غرفتي وأيقظني. كان رجلاً ذكيًا من الطبقة الوسطى الإنجليزية، كنت أثق به كثيرًا.

«ما الأمر، ويلسون؟» سألته.

رفع إصبعه إلى شفتيه واقترب مني وقال: «أعتقد أنني اكتشفت من يقوم بهذا التخريب،» همس، وأشار برأسه نحو غرفة الفتاة. «رأيتها تتسلل من غرفة الطاقم الآن،» تابع. «كانت تتحدث مع القائد الألماني. بنسون رآها هناك الليلة الماضية، لكنه لم يقل شيئا إلى أن دخلت في نوبتي اليوم. لأن بنسون بطيء الفهم فلم يصرح بما رآه على الفور، ولكنه عندما قال لي استطعت ربط الأحداث ببعضها ففهم هو الآخر.»

لقد تفاجأت كما لو أنني تلقيت صفعة على وجهي بدون مقدمات.

أمرته قائلا: «لا تذكر هذا الحديث أمام أحد, ابقِ عينيك وآذانك مفتوحتان، وأبلغني بكل شيء مشبوه تراه أو تسمعه.»

سلم الرجل وغادرني؛ لكنني بقيت، أتناول هذا الخبر في عقلي، وأتقلب على سريري القاسي في عذاب من الغيرة والخوف. بعد ساعة أو أكثر، غفوت في نوم مضطرب. وعندما استيقظت، كان الصباح قد حل. كنا نبحر ببطء على السطح، وكانت أوامري تقضي بالسير بسرعة نصفية حتى نتمكن من تحديد موقعنا.

كان الجو غائمًا طوال اليوم السابق وكل الليل، لكن عند دخولي إلى المركز في ذلك الصباح، تفاجأت برؤية الشمس تشرق مجددًا. بدا أن معنويات الرجال قد تحسنت وكل شيء بدأ يبدو واعدًا. لكن ما فاجأني هو أن السكسنت والكرونومتر قد تكسرا في تلك الليلة نفسها، في نفس الليلة التي رُصد فيها حديث ليس مع فون شونفورتس. هذا الاكتشاف كان أكثر ما آلمني، فقد كان من السهل التعامل مع الكوارث الأخرى، لكن احتمال خيانة ليس كان صدمة.

أخبرت برادلي وأولسون بما حدث، لكنني لم أستطع إخبارهم بما قاله ويلسون. فكرة أن الفتاة قد عبرت من خلال غرفتي دون أن يراها أحد كانت غير معقولة. لكن برادلي أعرب عن دهشته وقال إن الألمان قد يكونون ذكيين، بينما أكدت أن الأجهزة الإضافية قد اختفت أيضًا.

ثم، طلب بنسون الإذن بالصعود إلى السطح، وأخبرني أنه رأى ليس تتحدث مع القائد الألماني في منتصف الليل. نصحته بالإبلاغ عن أي شيء غير عادي مستقبلاً. بعد ذلك، بينما كان باقي الرجال على السطح، نزلت لتناول الفطور، حيث ظهرت ليس مبتسمة وقالت «صباح الخير!». سألتها إن كانت ستتناول الفطور معي، فوافقت،

وجلست معها على طاولة الطعام. «هل نمتِ جيدًا؟» سؤالي كان أكثر عن التحقيق منه عن الاهتمام. أجابت بثقة: «طوال الليل».

كان تعاملها صادقًا ومباشرًا لدرجة أنني لم أستطع تصديق خيانتها. ومع ذلك، قررت أن أحاول مفاجأتها وكشف ذنبها، فقلت فجأة: «تم تدمير الكرونومتر والسكسنت الليلة الماضية؛ هناك خائن بيننا.» لكنها لم تظهر أي علامة تدل على معرفتها بالجريمة.

«من برأيك يمكن أن يكون؟» قالت. «كان الألمان سيجنون لو فعلوا ذلك، لأن حياتهم في خطر مثل حياتنا.»

«غالبًا ما يكون الرجال مستعدين للموت من أجل قضية ربما قضية وطنية»، أجبت، «ورغبتهم في الاستشهاد تتضمن استعدادهم للتضحية بالآخرين، حتى من يحبونهم. النساء مثل الرجال، لكنهن قد يذهبن إلى أبعد من ذلك إنهن مستعدات للتضحية بكل شيء، حتى الشرف، من أجل الحب.»

راقبت وجهها عن كثب أثناء حديثي، واعتقدت أنني لاحظت احمرارًا خفيفًا يظهر على خدها. شعرت أنني وجدت فرصة، فتابعت.

«خذِ فون شونفورتس كمثال، سيكون مستعدًا للموت وأخذنا جميعًا معه لو لم يستطع منع سقوط سفينته في يد العدو بأي وسيلة أخرى. سيكون مستعدًا للتضحية بأي شخص، حتى أنتِ؛ وإذا كنتِ لا تزالين تحبينه، قد تكونين أداةً في يدِه. هل تفهمينني؟»

نظرت إليّ بدهشة، ثم شحبت وجهها وقامت بسرعة. «أفهم،» قالت، ثم دارت ظهرها لي ومضت بسرعة نحو غرفتها. حاولت أن

أتبعها، فحتى وإن كنت مقتنعًا بما قلته، شعرت بالأسف لأنني آذيتها. وصلت إلى باب غرفة الطاقم في اللحظة نفسها التي اقترب فيها فون شونفورتس منها وهمس في أذنها أثناء مرورها، لكنها على ما يبدو شعرت بأنها قد تكون مراقبة، فتابعت طريقها.

في تلك الظهيرة، بدأ الجو يصبح غائمًا؛ زادت الرياح لتصبح عاصفة، وارتفع البحر حتى أصبحت السفينة تتمايل بشكل مخيف. أصيب الجميع تقريبًا بالمرض، وأصبح الهواء خانقًا. لم أترك مكاني في برج القيادة طوال أربع وعشرين ساعة لأن أولسون وبرادلي كانا مريضين. أخيرًا، شعرت بحاجة للراحة، فبحثت عن شخص ليحل محلي. تطوع بنسون، الذي لم يكن مريضًا، وأكد لي أنه كان في الخدمة البحرية الملكية سابقًا، وتم تكليفه بمهمة غواصات لأكثر من عامين. كنت مرتاحًا لأنه هو، فقد كانت لدي ثقة كبيرة بولائه، لذا نزلت إلى الأسفل للاستراحة وهو في مكانه.

نمت اثني عشر ساعة متواصلة، وعندما استيقظت، أدركت ما فعلته، فركضت إلى برج القيادة. كان بنسون هناك جالسًا مستيقظًا تمامًا، وكانت البوصلة تشير إلى أننا نتجه مباشرة نحو الغرب. العاصفة ما تزال تعصف بنا، ولم يهدأ الطقس إلا في اليوم الرابع. كنا جميعًا مرهقين ونتطلع إلى اللحظة التي سنتمكن فيها من الصعود إلى السطح لأخذ نفس عميق من الهواء النقي. طوال هذه الأيام الأربعة لم أرَ الفتاة، حيث كانت على ما يبدو تبقى في غرفتها؛ خلال هذه الفترة، لم يحدث أي حادث غير عادي على متن السفينة، مما زاد من تأكيد الأدلة الظرفية حولها.

استمر الطقس العاصف لستة أيام أخرى بعد انقضاء العاصفة، ولم يظهر الشمس ولو لمرة واحدة. بالنسبة لهذا الموسم، كنا في منتصف يونيو ووجود عاصفة أمر غير معتاد، ولكن بما أنني من كاليفورنيا الجنوبية، فقد كنت معتادًا على الطقس الغريب. في الحقيقة، اكتشفت أن الطقس غير العادي يحدث في جميع أنحاء العالم على مدار العام.

واصلنا السير غربًا، ومع أن الغزاصة يو-33 كانت واحدة من أسرع الغواصات التي تم بناؤها، كنت أعلم أننا لابد أن نكون قريبين من السواحل الأمريكية الشمالية. ما كان يزعجني هو أننا طوال ستة أيام، لم نصادف أي سفينة.

كان من المدهش أن نتمكن من عبور المحيط الأطلسي حتى سواحل القارة الأمريكية دون أن نلحظ دخانًا أو شراعًا. توصلت في النهاية إلى استنتاج مفاده أننا قد خرجنا عن مسارنا، لكنني لم أستطع تحديد ما إذا كنا قد انحرفنا شمالًا أم جنوبًا. في اليوم السابع، كانت البحر هادئة نسبيًا في فجر اليوم. كان هناك ضباب خفيف على سطح المحيط، مما حال دون رؤيتنا للنجوم، ولكن الظروف كانت توحي بأن صباحًا صافًا سيشرق. كنت على السطح بانتظار شروق الشمس، وعينيّ ثابتتان على الضباب خلفنا، حيث

كنت آمل أن أرى التوهج الأول للشمس في الشرق ليؤكد لي أننا ما زلنا على المسار الصحيح. تدريجيًا، بدأ الفجر يضيء السماء، لكنني لم أتمكن من رؤية أي توهج يشير إلى شروق الشمس خلف الضباب. كان برادلي يقف إلى جانبي، وفجأة لمس ذراعي وقال: «انظر،

كابتن»، وأشار إلى الجنوب.

نظرت في الاتجاه الذي أشار إليه، وتنهدت، حيث رأيت قمة الشمس الصاعدة تتناثر عبر الضباب. هرعت إلى البرج وألقيت نظرة على البوصلة، فتبين لنا أننا نسير بثبات نحو الغرب. إما أن الشمس كانت تشرق في الجنوب، أو أن البوصلة قد تم العبث بها. كان الاستنتاج واضحًا.

عدت إلى برادلي وأخبرته بما اكتشفته. قلت له: «لا يمكننا السفر لمسافة 500 ميل أخرى بدون زيت. مؤونتنا تنفد، وكذلك مياهنا. الله وحده يعلم إلى أي مدى انحرفنا نحو الجنوب.»

رد قائلاً: «ليس أمامنا خيار سوى تغيير مسارنا مرة أخرى نحو الغرب. يجب أن نصل إلى اليابسة قريبًا، أو سنكون في خطر حقيقي.»

أمرته بذلك، وبدأت في ابتكار أداة تحديد المواقع البدائية. رغم أن قياساتنا كانت غير دقيقة تمامًا، فإن النتيجة أظهرت أننا كنا على بعد حوالي 20° شمالًا و 30° غربًا، أي نحو 2500 ميل عن مسارنا. باختصار، إذا كانت قراءتنا صحيحة، فنحن قد سافرنا جنوبًا لمدة ستة أيام.

ثم، بعد أن أخذ برادلي مكان بنسون في المناوبة، تابعت في استجواب أولسون وبنسون بشأن البوصلة، لكن كلاً منهما نفى بشدة أن يكون قد تم العبث بها أثناء دوره. بنسون أومأ لي ابتسامة فهم، وكأنه يقول: «نحن نعرف من فعل هذا.» ومع ذلك، لم أتمكن من تصديق أن الفتاة كانت وراء ذلك.

واصلنا مسارنا الغربي لعدة ساعات، حتى أعلن أحد المراقبين عن وجود شراع. أمرت بتغيير مسارنا تجاه السفينة الغريبة، حيث كنت قد اتخذت قرارًا اضطراريًا. لم يكن بإمكاننا أن نظل عالقين في وسط الأطلسي ونتعرض للجوع إذا كانت هناك فرصة للنجاة. رأيت السفينة الشراعية من بعيد، كما تبين من محاولاتها للهروب، لكن الرياح كانت خفيفة للغاية وحالتها ميؤوسًا منها. عندما اقتربنا وأمرناها بالتوقف، اتجهت السفينة مع اتجاه الرياح ووقفت بأشرعتها التي ترفرف بلا حراك. اقتربنا منها بشكل كبير. كانت السفينة تدعى بالمن من هالمستاد، السويد، تحمل شحنة من البرازيل إلى إسبانيا. شرحت للربان وضعنا وطلبت الطعام والماء والزيت، لكن عندما اكتشف أننا لسنا ألمانًا، أصبح غاضبًا وبدأ يبتعد عنا. لكنني لم أكن في مزاج للتساهل. التفت إلى برادلي في برج القيادة وأمرت: «خدمة المدفع على السطح! إلى محطات الغمر!» لم يكن لدينا وقت للتدريب، لكن كل فرد كان قد عُين إلى مهمته، وكان أعضاء الطاقم الألمان يعلمون أن الطاعة أو الموت هو الخيار الوحيد لهم، إذ كان كل منهم مصحوبًا برجل يحمل مسدسًا. ومع ذلك، كان معظمهم سعداء للغاية بالطاعة.

أصدر برادلي الأمر إلى السفينة، وبعد لحظات، صعد أفراد طاقم المدفعية عبر السلم الضيق، وقاموا بتوجيه المدفع نحو السفينة السويدية البطيئة الحركة. ثم أمرت قائد المدفع «أطلقوا طلقة أمام مؤخرة السفينة.»

صدقوني، لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أدرك السويدي خطأه،

فرفع علمًا أحمر وأبيض على الصاري مغزاه «لقد فهمت الدرس». عاد الهدوء للأشرعة التي توقفت عن الحركة، ثم أمرته أن ينزل قاربًا ويتبعنا. مع أولسون وبعض الإنجليز، صعدت إلى السفينة، ومن شحنتها اخترنا ما نحتاجه: الزيت، المؤن، والماء. سلمت ربان سفينة «بالمن» إيصالًا بما أخذناه، مع شهادة موقعة من برادلي وأولسون وأنا، تشرح باختصار كيف استحوذنا على الغواصة U-33 وضرورة حاجتنا لما أخذناه. أرسلنا الشهادة إلى أي وكيل بريطاني مع طلب تعويض لأصحاب السفينة «بالمن»، لكن لا أعلم إن تم تعويضهم أم لا.

بوجود الماء والطعام والزيت على متن السفينة، شعرنا أننا حصلنا على فرصة جديدة للحياة. والآن، أصبح لدينا معرفة دقيقة بمكاننا، وقررت التوجه إلى جورج تاون في غويانا البريطانية، لكنني كنت على وشك أن أواجه خيبة أمل جديدة.

صعد ستة من طاقمنا المخلص إلى السطح إما لخدمة المدفع أو لمهاجمة السفينة السويدية أثناء مواجهتنا معها، وبعد ذلك، نزلنا واحدًا تلو الآخر إلى داخل السفينة. كنت آخر من نزل، وعندما وصلت إلى الأسفل، فوجئت بمسدس البارون فريدريش فون شونفورتس موجهًا إلي، ورأيت جميع رجالي مصطفين على جانب، بينما كان الألمان الآخرون يقفون كحراس عليهم.

لم أتمكن من فهم كيف حدث ذلك، لكن حدث بالفعل. تعلمت لاحقًا أنهم قد أسقطوا بنسون أولاً وهو نائم في سريره وأخذوا مسدسه، ثم كانوا قادرين على نزع أسلحة الطباخ والإنجليز الآخرين في الأسفل بسهولة. بعدها، كان من السهل عليهم الوقوف في أسفل

السلم واعتقال كل فرد ينزل.

أول ما فعله فون شونفورتس هو إرسال منادٍ لي ليعلن أنه سيتم إعدامنا بتهمة القرصنة في صباح اليوم التالي. ثم شرح أن الغواصة U-33 ستواصل التجول في هذه المياه لبعض الوقت، لتغرق السفن المحايدة والمعادية على حد سواء، وتبحث عن إحدى السفن الحربية الألمانية المفقودة في تلك المنطقة.

لكن لم يُعدمني في الصباح كما وعد، ولا أفهم لماذا تأخر تنفيذ حكم الإعدام. بدلاً من ذلك، أبقاني مقيدًا كما كنت من قبل، ثم طرد برادلي من غرفتي وأخذها لنفسه. واصلنا الإبحار لفترة طويلة، غرقنا العديد من السفن، كلها باستثناء واحدة عبر إطلاق المدافع، لكننا لم نصادف أي سفينة حربية ألمانية. كنت مندهشًا عندما لاحظت أن فون شونفورتس كان كثيرًا ما يسمح لبنسون بتولي القيادة، لكنني بررت ذلك بأن بنسون كان يبدو أكثر دراية بمهام قائد الغواصة مقارنة بالألمان الآخرين.

مرت ليز بجانبي مرة أو مرتين، لكن في معظم الأحيان كانت تظل في غرفتها. في المرة الأولى، توقفت وكأنها كانت ترغب في التحدث إليّ، لكنني لم أرفع رأسي، وأخيرًا مرّت دون أن تقول شيئًا. ثم جاء يوم تم إخبارنا فيه أننا على وشك أن نلتف حول رأس هورن، وأن فون شونفورتس قرر أن يتجه صعودًا على طول الساحل الغربي لأمريكا الشمالية ليهاجم جميع أنواع السفن التجارية

في أواخر يوليو 1916، أوردت إحدى نشرات أخبار الشحن أن سفينة شراعية سويدية، «بالمن»، كانت في رحلة من ريو دي جانيرو

إلى برشلونة وقد غرقتها سفينة حربية ألمانية في يونيو. تم العثور على ناجٍ واحد في قارب مفتوح قبالة جزر كيب فيردي وهو في حالة احتضار، وتوفي دون أن يقدم أي تفاصيل.

قال: «سأزرع فيهم الخوف من الله والقيصر.»

في اليوم الأول الذي دخلنا فيه إلى المحيط الهادئ الجنوبي، بدأنا مغامرة غير متوقعة. تبين أنها كانت أكثر المغامرات إثارة في حياتي. كان الأمر كالتالي: في الساعة الثامنة صباحًا تقريبًا، سمعت نداء من سطح السفينة، وبعد لحظات، بدأت أسمع خطوات طاقم السفينة بالكامل من شدة الضوضاء القادمة من السلم. صرخ أحدهم للذين لم يصلوا بعد إلى السطح: «إنها السفينة الحربية، السفينة الحربية الألمانية 'غاير'!»

شعرت أننا وصلنا إلى نقطة النهاية. في الأسفل كان كل شيء هادئًا حيث لم يتبق أحد. فتحت بابًا في نهاية الهيكل الضيق، وظهر «نوبس» قادمًا نحوي. لعق وجهي وسقط على ظهره، ممددًا يديه الكبيرتين باتجاهي. ثم سمعت خطوات تقترب. عرفت من هي، فتوجهت بنظري نحو الأرض. كانت الفتاة تقترب بسرعة، ووصلت إلى جانبي في لحظة. «هنا!» صاحت. «سريعًا!» وأعطتني شيئًا في يدي. كان مفتاحًا - مفتاح القيود التي على يدي. وضعت مسدسًا بجانبي، ثم دخلت إلى المركز. بينما كانت تمر بجانبي، لاحظت أنها كانت تحمل مسدسًا آخر. لم يستغرقني وقتًا طويلاً لتحرير نفسي، ثم كنت بجانبها. «كيف يمكنني أن أشكرك؟» بدأت، لكنها قطعت كلامي بكلمة واحدة.

«لا تشكرني،» قالت ببرود. «لا أريد أن أسمع شكرًا منك أو أي شيء آخر. لا تقف هناك تحدق بي. لقد أعطيتك فرصة لتفعل شيئًا - الآن افعله!» كان كلامها حاسمًا لدرجة جعلتني أتحرك فورًا.

رفعت نظري ورأيت أن البرج كان خاليًا، فصعدت دون تردد، وأخذت أبحث حولي. على بعد نحو مئة ياردة كان هناك طراد صغير سريع، وفوقه كانت راية السفينة الحربية الألمانية. كان قارب قد نزل للتو، ورأيته يقترب منا محملاً بالضباط والجنود. كان الطراد أمامنا مباشرة. «يا إلهي،» فكرت، «ما أروع الهدف...» توقفت عن التفكير فجأة، مصدومًا ومدهشًا من جرأة تصوري. كانت الفتاة أسفلي. نظرت إليها بتردد. هل يمكنني أن أثق بها؟ لماذا أطلقت سراحي الآن؟ يجب أن أثق بها! يجب! لا يوجد خيار آخر. نزلت للأسفل. «اطلبي من أولسون أن ينزل هنا من فضلك،» طلبت. «ولا تدعي أحدًا يراك تطلبين منه.»

نظرت إلي بتعبير مرتبك لثانية، ثم التفت وصعدت السلم. بعد لحظات عاد أولسون، وتبعته الفتاة. «سريعًا!» همست إلى الإيرلندي الكبير، وتوجهنا نحو قسم المقدمة حيث توجد أنابيب الطوربيد في السفينة؛ وهنا كانت الطوربيدات أيضًا. تبعتنا الفتاة، وعندما رأت ما كنت أنوي فعله، تقدمت وساعدت في إدخال أسطوانة الموت والدمار إلى فوهة أنبوب الطوربيد. دفعنا الطوربيد بقوة وزيت، ثم أغلقنا الأنبوب. ركضت إلى البرج مرة أخرى، وأنا أدعو في قلبي أن الغواصة U-33 لم تكن قد غيرت اتجاهها بعيدًا عن الهدف. لا، الحمد لله!

لم يكن هناك تصويب أدق من ذلك. أشرت إلى أولسون: «أطلقها!» اهتزت الغواصة U-33 من مقدمتها إلى مؤخرة السفينة مع إطلاق الطوربيد من أنبوبه. رأيت الأثر الأبيض يقفز من مقدمتها مباشرة نحو الطراد المعادي. ارتفعت صيحات خشنة من سطح سفينتنا: رأيت الضباط يقفون معتدلي القامة فجأة في القارب الذي كان يقترب منا، وسمعت صرخات لعن من السفينة الحربية. ثم حولت انتباهي إلى عملي الخاص. كان معظم الرجال على سطح الغواصة واقفين في ذهول، يحدقون في الطوربيد. وبرادلي ينظر نحو البرج عندما رآني فقفزت على السطح وركضت نحوه. «سريعًا!» همست له. «بينما هم في حالة صدمة، يجب أن نتغلب عليهم.»

كان رجلا ألماني يقف بالقرب من برادلي، مباشرة أمامه. وجه الإنجليزي ضربة عنيفة إلى عنق الرجل، وفي الوقت نفسه انتزع مسدسه من غمده. استعاد فون شونفورتس توازنه بسرعة بعد المفاجأة الأولى ووجه نظره نحو الفتحة الرئيسية ليفحص الموقف. غطيته بمسدسي، وفي تلك اللحظة نفسها أصاب الطوربيد السفينة المهاجمة، مما غمر الانفجار الهائل صوت الألماني وهو يعطي أوامره إلى رجاله. كان برادلي الآن يركض بين رجالنا، ومع أن بعض الألمان لاحظوه وسمعوه، إلا أنهم بدوا في حالة من الذهول ولم يتمكنوا من التحرك. كان أولسون في الأسفل، لذا كنا تسعة مقابل ثمانية من الألمان، حيث كان الرجل الذي ضربه برادلي لا يزال ممددًا على سطح السفينة. كان اثنان منا فقط مسلحين، لكن يبدو أن عزيمة الألمان قد انهارت، فقدموا مقاومة ضعيفة. وكان فون شونفورتس هو الأكثر فزعًا؛ فقد ركض نحوي كالثور الهائج، وأثناء جريه أطلق

مسدسه. لو أنه توقف لحظة ليأخذ هدفه، لربما أصابني؛ لكن سرعته جعلته غير دقيق، لذا لم تصبني أي رصاصة. ثم تشابكنا وسقطنا على السطح. ترك ذلك لنا مسدسين، سارع اثنان من رجالنا لأخذهما. لم يكن البارون خصمًا لي في قتال يدوي، وسرعان ما قيدته إلى السطح وكدت أخنقه.

بعد نصف ساعة، هدأت الأوضاع وعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل تمرد السجناء، لكننا أصبحنا أكثر حرصًا في مراقبة فون شونفورتس. كانت سفينة «جيير» قد غرقت أثناء معركتنا على السطح، وبعد ذلك ابتعدنا نحو الشمال، تاركين الناجين لرعاية القارب الوحيد الذي كان في طريقه إلينا عندما أطلق أولسون الطوربيد. أظن أن أولئك التعساء لم يصلوا إلى الشاطئ، وإذا وصلوا، فلربما لقوا حتفهم على ذلك الشاطئ البارد وغير المضياف. لكنني لم أتمكن من السماح لهم بالصعود إلى الغواصة «يو-33» وكان لدينا ما يكفي من الألمان للعناية بهم.

في تلك الليلة، طلبت الفتاة إذنًا للصعود إلى السطح، موضحة أنها تشعر بالتأثير السيء للحبس الطويل في الأسفل، فوافقت على طلبها فورًا. لم أتمكن من فهمها تمامًا، وكنت أرغب في فرصة للتحدث معها مرة أخرى لفهم نواياها، لذا قررت متابعة صعودها. كانت ليلة صافية وباردة وجميلة. كان البحر هادئًا، باستثناء المياه البيضاء عند مقدمة السفينة والموجات الطويلة التي امتدت بعيدًا عن الجانبين، مكونة شكل V كبيرًا ملأته المراوح بموجات هائجة. وقف بنسون في البرج، وكنا في طريقنا إلى سان دييغو، وكل شيء كان على ما يرام. أما ليز فقد وقفت ملفوفة ببطانية ثقيلة حول

جسدها النحيف، وعندما اقتربت منها، التفتت نصف التفاتة نحوي لتعرف من خلفها. وعندما تعرفت علي، ابتعدت على الفور.

قلت لها: «أريد أن أشكرك على شجاعتك وولائك لقد كنت رائعة. أنا آسف لأنك كان لديك سبب للاعتقاد في وقت سابق أنني شككت فيك.»

أجابت بصوت هادئ: «لقد شككت فيّ لقد اتهمتني فعليًا بمساعدة البارون فون شونفورتس. لا أستطيع أن أغفر لك.»

كان هناك الكثير من الحسم في كلامها ونبرتها. «لم أستطع أن أصدق ذلك»، قلت؛ «ومع ذلك، قال اثنان من رجالي إنهم رأوك تتحدثين مع فون شونفورتس في الليل في مناسبتين منفصلتين، بعد كلامهما وجدنا أضرارًا كبيرة قد لحقت بنا في الصباح. لم أرغب في الشك فيك، لكنني كنت مسؤولًا عن حياة هؤلاء الرجال، وسلامة السفينة، وحياتك وحياتي. كان لابد لي من مراقبتك، وكان علي أن أضعك في حالة تأهب ضد تكرار تصرفاتك الغريبة.»

كانت تنظر إلي الآن بتلك العينين الكبيرتين، الواسعتين والدائريتين.

قالت : «من أخبرك أنني تحدثت مع البارون فون شونفورتس في الليل أو في أي وقت آخر؟»

أجبت: «لا أستطيع أن أخبرك يا ليز، لكن هذا وصلني من مصدرين مختلفين.»

«إذن كذب اثنان من الرجال،» قالت ذلك بنبرة هادئة وتابعت «لم

أتحدث إلى البارون فون شونفورتس إلا في وجودك، عندما صعدنا أول مرة على متن الغواصة U-33. وأرجو منك، عندما تخاطبني، أن تذكر أنه بالنسبة للآخرين غير المقربين مني، أنا الآنسة لا رو.»

هل شعرت يومًا بصفعة مفاجئة على وجهك حينما لم تتوقعها؟ لا؟ إذًا، لن تستطيع فهم كيف شعرت في تلك اللحظة. شعرت بحرارة قوية تصعد من عنقي، وتغطي خديّ، وتصل إلى أذني، ثم إلى فروة رأسي. وكان ذلك يزيد من إعجابي بها؛ جعلني أقسم في داخلي آلاف الأيمان أنني سأفوز بها.

الفصل الرابع

مرّت عدة أيام، سارت فيها الأمور على نفس الوتيرة تقريبًا. كل صباح، كنت أستعين بالسدس (السدس البدائي هو أداة بحرية قديمة تُستخدم لقياس زاوية الأجرام السماوية فوق الأفق لتحديد الموقع، ويتميز بتصميم أبسط وأقل دقة من السدس الفلكي الحديث. - المترجمة.)

البدائي الذي أملكه لتحديد موقعنا، لكن النتائج كانت دائمًا غير مرضية. كان هناك انحراف دائم نحو الغرب، رغم أنني كنت أعلم أننا نبحر نحو الشمال مباشرة. كنت ألوم الأداة البدائية، وأواصل العمل. ثم، في أحد الأيام، جاءتني الفتاة.

قالت بهدوء: «عذرًا»، لكن لو كنت مكانك، لأبقيت عينك على هذا الرجل بنسون خصوصًا عندما يكون هو المسؤول.» سألتها عن مغزى حديثها، معتقدًا أنها تشير إلى تأثير البارون فون شونفورت، الذي ربما كان يثير شكوكًا ضد أحد رجالي الأكثر ثقة.

قالت: «إذا لاحظت مسار السفينة بعد نصف ساعة من بداية عمل بنسون، فستفهم ما أعنيه، وستفهم لماذا يفضل العمل في الوردية الليلية. وربما أيضًا ستفهم بعض الأمور الأخرى التي حدثت على متن السفينة.»

ثم عادت إلى غرفتها، وانتهت المحادثة. انتظرت نصف ساعة بعد بدء عمل بنسون، ثم صعدت إلى سطح السفينة، مرورًا عبر برج القيادة حيث كان بنسون جالسًا. نظرت إلى البوصلة، التي كانت

تشير إلى أننا نبحر في مسار الشمال والشمال الغربي أي نقطة واحدة غرب الشمال، وهو ما يتطابق بدقة مع موقعنا المفترض. شعرت بارتياح كبير لأنني تأكدت أن الأمور على ما يرام، فقد سببت لي كلمات الفتاة الكثير من القلق. كنت على وشك العودة إلى غرفتي عندما خطر ببالي شيء جعلني أغير قراري فجأة وفي الوقت نفسه كاد يوقعني في حكم الموت.

عندما تركت برج القيادة قبل نصف ساعة فقط، كانت الأمواج تضرب الجهة الأمامية اليسرى للسفينة. كان يبدو لي من غير المحتمل أن يتغير البحر فجأة ليغمرنا من الجهة المعاكسة في هذا الوقت القصير. قد تتغير الرياح بسرعة، لكن البحر الثقيل لا يتغير بهذا الشكل المفاجئ. كانت هناك حلقة واحدة فقط يمكن أن تفسر الأمر منذ أن تركت البرج، تم تعديل مسارنا نحو ثماني نقاط.

التفت فجأة وصعدت إلى برج القيادة، حيث أكدت لي السماء ما كنت أشك فيه؛ كانت الكوكبات التي من المفترض أن تظهر أمامنا مباشرة على اليمين، بينما كنا نسير غربًا. وقفت للحظة لأراجع حساباتي، كنت أحتاج إلى التأكد قبل أن أتهم بنسون بالخيانة. ولكن، الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع التأكد منه هو حتمية الموت. لم أتمكن حتى الآن من فهم كيف نجوت.

كنت واقفًا على حافة البرج حينما باغتني كف ثقيل بين كتفيّ، فدفعني إلى الأمام، وجعلني أتناثر في الفضاء. كان السقوط إلى سطح السفينة أمام البرج كفيلًا بكسر ساقي، أو ربما كنت سأنزلق وأغرق في البحر، ولكن القدر كان معي، فقد كانت إصابتي طفيفة

فقط. وعندما نهضت، كان صوت غطاء البرج يغلق خلفي. كان هناك سلم يربط سطح السفينة بقمة البرج، فتسلقته بسرعة، لكن بنسون كان قد أغلق الغطاء بإحكام قبل أن أصل.

وقفت هناك للحظات، مشلولًا في ذهول. ما الذي كان يخطط له هذا الرجل؟ ما الذي حدث في الأسفل؟ إذا إفترضنا أن بنسون خائنًا، فكيف لي أن أعرف لو أن آخرون يتآمرون أيضا؟ لعنث نفسي على حماقتي في الخروج إلى السطح، ثم سرعان ما اقترن فكري بفكرة أكثر رعبًا: من كان المسؤول عن وجودي هنا حقًا؟ فكرت في لفت الأنظار من داخل السفينة، فركضت مرة أخرى إلى السلم وعلى سطح السفينة الصغير، إكتشفت أن الأغطية الحديدية لنوافذ البرج كانت مغلقة بإحكام. استندت إلى البرج، ولعنت نفسي على سذاجتي وغبائي.

نظرت نحو المقدمة، حيث كان البحر يزداد ثقلًا، والأمواج تكتسح السطح السفلي بالكامل. تابعت المشهد للحظة، ثم شعرت فجأة ببرودة شديدة. لم تكن برودة الملابس المبللة أو رذاذ الماء الذي غمر وجهي، بل كانت برودة الموت ذاته التي تسربت إلى أعماق قلبي. في تلك اللحظة، عبرت آخر منعطف في طريق الحياة، وكأنني أواجه وجه الله تعالى، لقد كانت الغواصة U-33 تغرق ببطء، من المستحيل وصف مشاعري في تلك اللحظة. كل ما أتذكره هو أنني ضحكت، لكن لم تكن ضحكة ناتجة عن شجاعة زائفة أو هيجان، بل كانت ضحكة خالية من أي معنى، ضحكة نابعة من العدم. داهمتني رغبة شديدة في التدخين، يا للهول! كم كنت أتمنى سيجارة، مع أن ذلك كان بعيدًا عن متناولي.

راقبت المياه ترتفع حتى غمرت السطح الصغير الذي كنت واقفًا عليه، ثم تسلقت مجددًا إلى قمة برج القيادة. من خلال الغمر البطيء للقارب، علمت أن بنسون كان يدير كل شيء بمفرده؛ كان يترك أسطوانات الغمر تملأ دون أن يستخدم الدفّات. توقفت المحركات، وحل محلها اهتزاز المحركات الكهربائية. وصل الماء إلى منتصف برج القيادة! أمامي ربما خمس دقائق فقط على السطح، تساءلت ماذا الذي يجب علي فعله عندما أغرق: هل أستمر في السباحة حتى تنهك قواي، أم أستسلم مع الغمر الأول وأنهي العذاب؟

سمعت صوتان مكتومان في الأسفل، بدا وكأنهما طلقات. هل كان بنسون يواجه مقاومة؟ بالنسبة لي، لم يكن لذلك أي معنى، لأنه حتى لو تمكن رجالي من هزيمة العدو، فلن يعلم أحد بمصيبتي وسأظل حتى يفوت الأوان لإنقاذي. كانت قمة برج القيادة مغمورة الآن. تمسكت بعمود اللاسلكي بينما كانت الأمواج العاتية تجتاحني أحيانًا بالكامل. كنت أعلم أن النهاية باتت قريبة، وكأنني، لا إراديًا، فعلت ما لم أفعله منذ الطفولة، صليت. وبعدها، شعرت بتحسن. تمسكت وانتظرت، لكن المياه بدأت تتراجع، ولم تزداد. الآن، أصبحت قمة برج القيادة تستقبل فقط قمم الأمواج العالية، أسفل والسطح المثلث الصغير مرئيًا أمامي! ماذا حدث في الداخل؟ هل كان بنسون يظن أنني فارقت الحياة بالفعل فخرج بناءً على هذا الاعتقاد؟ أم هل هُزم هو وقواته؟ كان الترقب أكثر إرهاقًا من انتظار للموت.

بعد لحظات، ظهر السطح الرئيسي، ثم فُتح برج القيادة خلفي. التفت لأرى وجه برادلي المليء بالقلق، ثم ارتسمت على ملامحه

تعبيرات الارتياح.

«الحمد لله يا «رجل» كان هذا كل ما قاله وهو يمد يده ويسحبني إلى البرج. كنت في حالة من البرودة القارسة مرهقًا، وشعرت أنني على حافة السقوط. دقيقة واحدة كانت كفيلة بأن تنهي حياتي، لكن دفء المكان أعاد إلي الروح بعد أن صب برادلي مشروب براندي في حلقي فأنعشني وردني للحياة ، كان ذلك البراندي قادرًا على إحياء الجثث بحق.

عندما نزلت إلى المركز، رأيت الألمان مصطفين على أحد الجوانب، بينما حمل بعض رجالي المسدسات وهم اقفين فوقهم. فون شينفورتس كان بينهم راكعا على الأرض وبنسون يئن ووراءه كانت الفتاة تحمل مسدسًا في يدها. نظرت حولي في حيرة.

سألت «ماذا حدث هنا؟ أخبرني!»

أجاب برادلي قائلاً كما ترى سيدي كان من الممكن أن تكون النتيجة مختلفة تمامًا لولا وجود السيدة لا رو. كنا جميعًا نائمين وبنسون قد أخلى الحراسة في وقت مبكر من المساء، ولم يكن هناك من يراقبه سوى السيدة لا رو التي شعرت بالغمر ثم خرجت من غرفتها لتتفقد الوضع. وصلت في اللحظة التي رأت فيها بنسون عند دفّات الغمر. وعندما رآها رفع مسدسه وأطلق النار عليها لكنها باغتته أطلقت النار عليه من مسافة قريبة، هو أخطأ التصويب في حين أنها لم تخطئ. استفاق الجميع على صوت الطلقات، كانت النتيجة حتمية كما تراها الآن. لكن الوضع كان سيكون مختلفًا تمامًا لولا السيدة لا رو برغم أن رجالنا كانوا مسلحين. فهي التي

أغلقت صمامات الغمر، وأيقظت أولسون وأيقظتني، وبدأت تشغيل المضخات لإفراغ الأسطوانات.

لقد أعتقدت أن مكائدها هي التي قادتني إلى السطح، وبالتالي إلى الموت! كان بإمكاني أن أنحني لها وأطلب المغفرة أو على الأقل كان بإمكاني فعل ذلك لو لم أكن أنجلو- ساكسونيا. لكنني لم أستطع إلا أن أخلع قبعتي المبللة وأمشي بتواضع معبرًا عن تقديري. لم تبد ردفعل أمام فعلي هذا، بل استدارت وسارت بسرعة نحو غرفتها.

سألت نفسي عندما سمعت هذا الصوت، هل ما أسمعه صحيح؟ هل كان ذلك حقًا أنينا يهمس في أذني من خلال الممر الضيق في الغواصة U33، مات بنسون في تلك الليلة. ظل متحديًا حتى اللحظة الأخيرة؛ ولكن قبل أن يفارق الحياة أشار لي، فاقتربت لأسمع همسات كلماته قال: «فعلت ذلك وحدي فعلت ذلك لأنني أكرهك أكره كل شخص من نوعك تم طردي من حوض سفنكم في سانتا مونيكا. تم إغلاق الأبواب في وجهي في كاليفورنيا. أنا عضو في اتحاد العمال الصناعيين ثم أصبحت عميلًا ألمانيا ليس لأنني أحبهم، فأنا أكرههم أيضًا ولكن لأنني أردت إيذاء الأمريكيين الذين كنت أكرههم. ألقيث جهاز اللاسلكي في البحر، فتهشمت الساعة الدقيقة وتكسر الساكسنت. وضعث خطة لتوجيه البوصلة بما يتماشى مع رغباتي. أخبرث ويلسون بأنني رأيث الفتاة تتحدث مع فون شينفورتس، وجعلث المسكين يعتقد أنه رآها تفعل نفس الشيء. آسف... آسف لأن خططي فشلت. أكرهك.»

لم يمت إلا بعد نصف ساعة من تلك الكلمات. ولم ينبس ببنت شفة

بعدها، لكن قبل أن يغادر، تحركت شفتاه وهمس ببعض الكلمات. وعندما اقتربث لأسمع، ما الذي سمعته؟ «الآن .. أنا.. أنام .. لأ.. نوم.» هذا كل ما قاله، ثم فارق بنسون الحياة. وألقينا بجسده في البحر. جلبت رياح تلك الليلة طقسًا قاسيًا، مع غيوم سوداء كثيفة استمرت لأيام. لم نكن نعرف أي طريق نسلك، ولم يكن لدينا وسيلة لمعرفة ذلك، إذ فقدنا الثقة بالبوصلة ولم نكن نعلم ما الذي فعله بنسون بها. في النهاية، تجولنا بلا هدف حتى أشرقت الشمس مجددًا. لن أنسى ذلك اليوم وما حمله من مفاجآت. قدرنا، أو بالأحرى خمنا، أننا كنا قبالة سواحل بيرو. فجأة، تحولت الرياح من الشرق إلى الجنوب، وشعرنا ببرودة مفاجئة.

تمتم أولسون «بيرو! متى كانت آخر مرة شممتم رائحة الجبال الجليدية قبالة بيرو؟»

قال أحد الإنجليز «الجبال الجليدية! جبال جليدية؟ مستحيل! الجبال الجليدية لا تكزن قريبة من الشمال إلا بعد خط العرض الرابع عشر هنا.»

رد أولسون «إذن، أنتم تقعون في جنوب خط العرض الرابع عشر، يا صديقي.»

ظننا أنه فقد عقله، لكنه لم يكن كذلك. بعد ظهر ذلك اليوم، رأينا جبلًا جليديًا ضخمًا يظهر جنوبنا، رغم أننا كنا نظن أننا نسير شمالًا منذ أيام. يمكنني أن أخبرك أننا كنا في حالة من الإحباط، لكن بصيصًا من الأمل ظهر في صباح اليوم التالي عندما صرخ الحارس عبر الفتحة المفتوحة: «أرض! أرض تقع في الشمال الغربي من جهة

الغرب!»

أعتقد أننا جميعًا كنا متلهفين لرؤية الأرض. أعرف أنني كنت كذلك، لكن اهتمامي تلاشى بسرعة بسبب مرض ثلاثة من الألمان. بدأوا في التقيؤ جميعهم في نفس اللحظة. لم يكم هناك تفسيرا لما حل بهم. سألتهم ماذا أكلوا، فتبين أنهم لم يتناولوا سوى الطعام الذي طهيناه للجميع. سألتهم «هل شربتم شيئًا؟» سألتهم لأنني كنت أعلم أن هناك مشروبًا كحوليًا وأدوية في خزانة السفينة نفسها. تأوه أحدهم وهو يقول «شربنا الماء فقط, شربنا جميعًا الماء معًا هذا الصباح. فتحنا خزانًا جديدًا. ربما كان الماء هو السبب.»

بدأت التحقيقات، وكشفت عن حقيقة مرعبة: شخص ما، ربما بنسون، قد سمم المياه الجارية على السفينة. لكن الوضع كان ليكون أسوأ بكثير لو لم تظهر الأرض في الأفق. منظر الأرض بعث فينا الأمل مجددًا. تغير مسارنا بشكل مفاجئ، إذ كنا نقترب بسرعة من ما بدا كقمة جبلية حادة. المنحدرات التي كانت ترتفع بشكل عمودي من البحر اختفت في الضباب من الجانبين بينما كنا نقترب. الأرض أمامنا قد تكون قارة، فقد كانت الشواطئ تبدو هائلة؛ ولكننا كنا نعلم أن هناك آلاف الأميال بيننا وبين أقرب كتلة أرضية في الغرب إما نيوزيلندا أو أستراليا.

استخدمنا أدواتنا البدائية وغير الدقيقة لأخذ القياسات، وتفحصنا الخريطة، ثم بدأ التعب يثقل عقولنا. أخيرًا، كان برادلي هو الذي اقترح حلاً. كان في البرج يراقب البوصلة، التي لفت انتباهي إليها فوجد أن الإبرة تشير مباشرة نحو الأرض. فجأة، قام برادلي

بتحويل دَفّة السفينة نحو اليمين. شعرت بأن الغواصة U-33 استجابت، ومع ذلك، ظلت الإبرة ثابتة تشير نحو المنحدرات البعيدة.

سألته: «ماذا تعتقد في هذا؟»

فأجاب «هل سمعت يومًا عن كابروتي؟»

قلت: «هل ملاح إيطالي قديم؟»

«نعم، كان يبحر مع كوك في حوالي عام 1721. لم يُذكر كثيرًا من قبل المؤرخين المعاصرين، ربما بسبب الصعوبات السياسية التي واجهها عند عودته إلى إيطاليا فقد كانت ادعاءاته محط سخرية، لكنني أذكر أنني قرأت أحد كتبه، أظن أنه الكتاب الوحيد الذي وصف فيه قارة جديدة في البحار الجنوبية، قارة مكونة من 'معدن غريب' جذب البوصلة. كان الساحل صخريًا وقاحلًا، بلا شاطئ أو ميناء، يمتد لمئات الأميال. لم يتمكن كوك من الهبوط، وحتى في الأيام التي أبحر فيها حوله لم يرَ أي أثر للحياة. أسماها كابروتي، ثم أبحر بعيدًا. أعتقد يا سيدي، أننا نواجه الآن ساحل كابروتي، الذي بقي مجهولًا ومنسيًا لمدة مائتي عام.»

قلت: «إذا كنت على صواب، فذلك قد يفسر العديد من انحرافات البوصلة التي شهدناها في اليومين الماضيين, لقد كانت كابروتي تجذبنا نحو صخورها القاتلة. حسنًا، سنقبل تحديها. سنهبط على كابروتي. على هذا الساحل الطويل، لا بد وأن هناك نقطة ضعف يمكننا استغلالها في هذا الساحل القاسي. وسنجدها، برادلي. يجب أن نجدها. يجب أن نجد الماء في كابروتي، أو سنموت.»

وهكذا، اقتربنا من الساحل الذي لم تلمحه عين إنسان من قبل. من أعماق البحر ارتفعت المنحدرات الشاهقة، مزينة بتدرجات من اللون البني والأزرق والأخضر والطحلب والأعشاب البحرية الجافة، والنحاس الأخضر، وكان أكسيد الحديد الأصفر الباهت يملأ المكان. أما قمم المنحدرات، رغم تمزقها، حافظت على ارتفاع متساوٍ، كأنها تمثل حدود هضبة ضخمة، ومن حين لآخر، أمكننا رؤية بعض النباتات الخضراء تعلو الصخور كما لو أن الأدغال الاستوائية قد امتدت من الأعماق لتعلن أن كابروتي ما زالت حية، تنبض بالحياة وراء هذا الساحل القاسي. لكن الكلمات مهما كانت شاعرية، لا تسد عطش الحلق. للاستمتاع بجمال كابروتي، كان علينا أن نجد الماء. لذا اقتربنا أكثر، ونحن نستخدم الموازين في كل خطوة، متجنبين الساحل. وفي كل مرة كنا نبحر فيها، كنا نواجه أعماقًا غير قابلة للقياس، وكل شيء كما هو مجرد ساحل مستمر على طول المنحدرات العارية، ومع اقتراب الليل، ابتعدنا أكثر وأبحرنا بعيدًا طوال الليل. لم نشعر بعد بنقص الماء، لكنني كنت على يقين أن ذلك لن يستمر طويلاً. لذا، مع أول خيوط الفجر، بدأت في دراسة الساحل مرة أخرى، والذي لم يكن يبشر بالراحة.

بحلول الظهيرة، اكتشفنا الشاطئ الأول. كان شريطًا ضيقًا من الرمال عند قاعدة جزء من المنحدر الذي بدا أقل ارتفاعًا من أي مكان فحصناه. عند القاعدة، كانت توجد صخور ضخمة مدفونة جزئيًا في الرمال، كدليل صامت على أن قوة طبيعية الهائلة قد اجتاحت هذا الحاجز في زمنٍ بعيد. كان برادلي أول من لفت انتباهنا إلى شيء غريب ممدد بين الصخور فوق الأمواج.

«يبدو وكأنه إنسان» قالها، وأعطاني نظارته.

نظرت طويلًا، وبتركيز شديد، حتى كدت أتيقن أن ما رأيته كان شكل إنسان ممدد على الشاطئ. كانت الآنسة لا رو معنا على سطح السفينة، فطلبت منها النزول. وبدون كلمة واحدة، امتثلت. ثم خلعت ملابسي، فوقف نوبس يراقبني في حيرة. كان معتادًا أن نغوص معًا في الأمواج في الوطن، ومن الواضح أنه لم ينسَ ذلك.

سألني أولسون «ماذا ستفعل يا سيدي؟»

أجبت: «سأذهب لأرى ما هو ذلك الشيء الموجود على الشاطئ»، إذا كان إنسانًا، فقد يعني أن كابروتي مأهولة، أو أنه ربما بعض المساكين قد ماتوا هنا. سأتمكن من معرفة ذلك من ملابسهم.»

تساءل أولسون. «ماذا عن القروش؟ لا بد أن تحمل سكينًا.»

«إليك السكين يا سيدي» صرخ أحد الرجال.

كان السكين طويلاً ورقيقًا، يمكنني حمله بين أسناني، فأخذته منه بسرور.

«ابق بالقرب من الشاطئ» أمرت برادلي، ثم قفزت إلى البحر وسبحت نفسي نحو الشاطئ الضيق. كان نوبس يسبح بشجاعة خلفي مباشرة، وعندما التفت، لمحت الوفي الذي لا يفارقني، يسبح بعزيمة، كأنما تحدى البحر نفسه. كانت الأمواج هادئة، والتيارات تحت الماء غائبة، وبحلول لحظة قصيرة، وصلنا إلى الشاطئ بسلام. كان الشاطئ مغطى أساسًا بحصى صغيرة، مصقولة بفعل المد والجزر، فيما كانت الرمال قليلة. ورغم أن الشاطئ بدا وكأنه كله

رمال مثل التي كانت على سطح الغواصة U-33، فإنني لم أرَ أي آثار للأصداف أو القشريات، كما هو الحال في الشواطئ التي عهدتها من قبل. ربما يعود ذلك إلى ضيق الشاطئ، وعمق المياه المحيطة الهائل، والمسافة الشاسعة التي تفصل كابروتي عن أقرب جيرانها.

بينما كنت أنا ونوبس نقترب من الشكل الملقى على الشاطئ، كانت أنفي تخبرني بأن هذا الكائن كان يومًا ما عضوًا حيًا، وإن كان قد فارق الحياة منذ وقت طويل. توقف نوبس فجأة، شَمَّ بعمق ثم أصدر صوتًا منخفضًا، قبل أن يرفع أنفه نحو السماء ويبدأ في عواءٍ حزين. رميت حجرًا صغيرًا نحوه وأمرته بالصمت كان صوته الغريب يثير في نفسي التوتر. عندما اقتربت أكثر من الكائن، ظللت عاجزًا عن تحديد ما إذا كان إنسانًا أم حيوانًا. كانت الجثة منتفخة بشدة، وجزء منها متحلل، دون أن تظهر عليها أي آثار للملابس. كان هناك شعر بني ناعم يغطي صدره وبطنه، في حين كان وجهه، كفاه، وقدماه، وظهره تقريبًا خاليا من الشعر. بدا الكائن بحجم إنسان متوسط، وملامحه كانت شبيهة إلى حد بعيد بملامح البشر. ومع ذلك، هل كان إنسانًا؟

لم أستطع الجزم، فقد كانت ملامحه أقرب إلى الإنسان منها إلى القرد. كانت أصابعه الكبيرة بارزة، كما هو الحال لدى بعض شعوب بورنيو والفلبين، والمناطق النائية حيث لا تزال بعض الأنواع البدائية موجودة. قد يكون وجهه مزيجًا بين «الإنسان القردي» من جاوة وابنه من سلالة «بيلدتاون» في سوسكس القديمة. بجانب الجثة، كانت هناك عصا خشبية، مما أثار تساؤلاتي. لكن ما أثار انتباهي هو غياب أي خشب أو شيء يشير إلى أن هذا الكائن كائن

من البحرية، فما كان على الشاطئ يوحي بتجربة بحرية. لم تكن الجثة تخص إنسانًا ملاحًا أو بحارًا. بل كانت تعود إلى نوع من البشر البدائيين، أو ربما نوع من الكائنات الحية العليا. في كل الأحوال، لم يكن ينتمي إلى سلالة بحرية. لذا استنتجت أنه كان من سكان كابروتي، يعيش في الداخل، وربما سقط أو تم رميه من المنحدرات العليا. هذا يعني أن كابروتي قد تكون قابلة للسكن، وإن لم تكن مأهولة بالبشر. ولكن، كيف يمكن الوصول إلى الداخل القابل للسكن؟ هذا هو السؤال. لقد عززت قناعتي من على سطح الغواصة U-33 بأن المنحدرات العمودية لا يمكن تسلقها من قبل أي إنسان عادي. لم يكن هناك أي مكان للتمسك أو وضع القدم عليه. فتراجعت، وقد خيم الإحباط على نفسي.

لم نلتقِ بأسماك القرش في رحلتنا العودة إلى الغواصة، لكن تقاريري التي ملأت السجلات كانت مليئة بالتكهنات والنظريات، ومعها شعور متجدد بالأمل وعزيمة جديدة. كان الجميع يفكرون بالطريقة نفسها التي فكرت بها، فقد كانت الاستنتاجات واضحة، ولكن الماء كان هو اللغز الغامض. أصبحنا الآن أكثر عطشًا من أي وقت مضى. مررنا ببقية اليوم في متابعة استكشاف ساحلٍ كان مملًا ومضنيًا. لم يكن هناك أي فاصل بين المنحدرات الحادة، ولا حتى شاطئ صغير مغطى بالحصى. ومع غروب الشمس، بدأ شعور اليأس يتسلل إلى أرواحنا. حاولت مجددًا التقدم نحو الفتاة، لكنها لم تلتفت إليّ، فزداد عطشي، وحزني، واكتئابي. كنت أشعر بالسعادة عندما بزغ فجر اليوم الجديد، فكسر تعويذة الليلة التي مرّت بلا نوم.

لكن عملية البحث في الصباح جلبت لنا بريقًا من الأمل. كانت كابروتي محصنة، هذا كان رأي الجميع، ومع ذلك استمررنا في المحاولة. مرّ نحو ساعتين من فترة الظهيرة عندما لفت انتباه برادلي فرع شجرة يحمل أوراقًا عائمة في البحر. فقال: «ربما تم نقله إلى المحيط بواسطة أحد الأنهار».

أجبت: «نعم قد يكون كذلك؛ ربما سقط أو تم رميه من أعلى أحد هذه المنحدرات.»

تبددت فرحة برادلي، وقال: «فكرت في ذلك أيضًا، ولكن أردت أن أصدق الرأي الآخر».

صرخت بحماسة: «أنت على صواب! يجب أن نصدق الآخر حتى نثبت خطأه. لا يمكننا الاستسلام الآن، حينما نحتاج إلى الشجاعة أكثر من أي وقت مضى. الفرع جاء عبر النهر، ونحن سنجد هذا النهر». ضربت كفي المفتوح بقبضة يدي، مؤكدًا عزيمةً غير مدعومةٍ بالأمل. ثم صرخت فجأة: «هناك!» وأشرت إلى مكان أقرب إلى الشاطئ وأكملت قولي: «هل ترى ذلك يا برادلي؟» أظهرت له بعض الزهور والأعشاب وفرع آخر من أوراق الشجر تطفو نحونا. فحصنا الماء والساحل. كان من الواضح أن برادلي اكتشف شيئًا، أو على الأقل ظن أنه اكتشفه. طلب دلوًا وحبلًا، وعندما تم تمريرها إليه، خفض الدلو إلى البحر وسحبه ممتلئًا بالماء. ذاق منه، ثم رفع رأسه ونظر في عيني بتعبير من الفرح، كأنما يقول: «ألم أخبرك؟»

أعلن قائلا: «هذا الماء دافئ، وجديد!»

أخذت الدلو وتذوقت محتوياته. كان الماء دافئًا جدًا، وكان جديدًا،

لكنه حمل طعمًا غير مريح.

سأل برادلي:»هل ذقت من قبل ماء من بركة راكدة مليئة بالضفادع؟»

صرخت: «هذا هو! هذا هو الطعم نفسه تمامًا، رغم أنني لم أشعر به منذ طفولتي. لكن كيف يمكن للماء من مجرى مائي جارٍ أن يكون هكذا؟ وما الذي يجعله دافئًا إلى هذا الحد؟ يجب أن تكون درجة...».

كانت الحرارة حوالي سبعين أو ثمانين فهرنهايت، وربما أكثر.

أقر برادلي: «نعم,أعتقد أنه أعلى، لكن من أين يأتي هذا؟»

أجبت: «من السهل معرفة ذلك الآن بعد أن حددنا مصدره, أجل لا يمكن أن يكون من البحر، لذا لابد أنه قادم من البر. كل ما علينا هو تتبعه، وفي النهاية سنصل إلى منبعه.»

كنا قريبين للغاية من الشاطئ، لكنني أمرت بتوجيه مقدمة الغواصة U-33 نحو اليابسة. بدأنا بالتحرك ببطء، نغرف الماء ونتذوقه لنحرص على أننا لا نبتعد عن التيار العذب. كان هناك نسيم لطيف من الرياح البحرية، وكانت الأمواج غير مرتفعة، لذا استمررنا في الاقتراب دون أن نلامس القاع. وعلى الرغم من قربنا، لم نلحظ أي انحراف في الساحل قد ينبعث منه حتى جدول صغير، وبالتأكيد لم نرَ فم نهر كبير يستطيع أن يجعل البحر عذبًا على بعد مائتي ياردة. كان المد في انحسار، ومع التيار القوي للمياه العذبة، كان من المستحيل الاقتراب من الجرف حتى لو لم نستخدم الدفع؛ إذ كان علينا التصدي لتلك القوى المشتركة لنحافظ على مكاننا. اقتربنا

إلى مسافة خمسة وعشرين قدمًا من الجرف الوعر الذي ارتفع عالياً فوقنا، ولم نرَ أي فاصل في وجهه القاسي. بينما كنا نراقب سطح المياه ونتفحص الجرف، اقترح أولسون أن المياه العذبة قد تكون قادمة من نافورة تحت البحر، مما قد يفسر حرارتها. وفي اللحظة نفسها، ظهرت شجيرة مزهرة على السطح، وانجرفت خلفنا.

قال برادلي: «الشجيرات المزهرة لا تنمو في الكهوف التي تنبع منها الينابيع الساخنة.»

هز أولسون رأسه قائلاً: «هذا يربكني.»

فجأة، صرخت: «لقد وجدتها! انظروا هناك!» وأشرت إلى قاعدة الجرف التي كان المد المتراجع يكشفها تدريجياً. نظروا جميعًا ورأوا ما رأيت: فتحة مظلمة في الصخر، يتدفق منها الماء إلى البحر.

صرخت:»إنها قناة تحت الأرض لنهر داخلي, يتدفق عبر أرض مغطاة بالنباتات وأرض مشمسة. لا توجد كهوف تحت الأرض تنتج نوعًا من الحياة النباتية يشبه ما رأيناه يخرج من هذا النهر. ووراء هذه الجروف، هناك أراض خصبة ومياه عذبة وربما فرائس!»

قال أولسون: «نعم يا سيدي, خلف الجروف! قلت كلمة صحيحة، يا سيد إنها في الخلف!»

ضحك برادلي ضحكة خفيفة وقال: «كان بإمكانك الإشارة إلى هذا، يا سيدي, كما لو أن العلم قد قال إن هناك مياه عذبة ونباتات على المريخ.»

أجبت: «ليس على الإطلاق, الغواصة ليست مصممة للسفر في

الفضاء، بل للغوص تحت سطح البحر.»

سأل أولسون: «هل ستذهب إلى تلك الفجوة الفارغة؟».

أجبت: «نعم, ليس لدينا أي فرصة للبقاء على قيد الحياة بين مئة ألف إذا لم نجد الطعام والماء في كابرونا. الماء الذي يخرج من الجرف ليس مالحًا، لكنه غير صالح للشرب، رغم أننا شربنا منه جميعًا. من العدل أن نفترض أن النهر في الداخل يتغذى من جداول نقية، وأن هناك فواكه وأعشابًا وفرائس. هل سنظل هنا نموت من العطش والجوع بينما قد تكون أرض الوفرة على بعد مئات الأمتار فقط؟ هل لدينا الوسائل اللازمة للملاحة في نهر تحت الأرض؟ هل نحن جبناء لدرجة أننا نتردد في استخدامها؟»

قال أولسون: «إذن، إلى هناك.»

قال برادلي: «أنا مستعد للمضي قدمًا.»

ثم صرخ شاب كان قد مر بتجارب في الخنادق: «إذن، إلى الأعماق! مع أطيب التمنيات، ودعهم يعرفون من نحن!»

أصدرت أمرًا: «إلى محطات الغمر!»، وفي لحظات، أصبح السطح خاليًا، أغلقت أغطية برج القيادة، وبدأت الغواصة U-33 بالغمر ربما للمرة الأخيرة. شعرت بشيء في أعماقي، وأعتقد أن رفاقي شعروا بذلك أيضًا. بينما كنا نغوص، جلست في البرج، وكان مصباح البحث يرسل شعاعه الضعيف إلى الأمام. غمرنا ببطء، دون أي حركة غير ضرورية للحفاظ على الاتجاه الصحيح للغواصة. وعندما نزلنا أكثر، رأيت أمامنا فتحة سوداء في الجرف الضخم، كانت واسعة بما يكفي

لاستيعاب عدة غواصات في وقت واحد، وبشكل أسطواني تقريبًا، مظلمة كما الحفرة في الجحيم. عندما أمرت بتوجيه الغواصة U-33 للأمام، شعرت بشيء غير مريح، إحساس غريب بوجود شر ما. إلى أين نحن ذاهبون؟ ماذا ينتظرنا في نهاية هذا النفق؟ هل ودعنا ضوء الشمس والحياة للأبد، أم أن هناك مخاطر أعظم في انتظارنا؟ حاولت أن أبعد هذه الأفكار المزعجة عن ذهني ووجهت انتباهي إلى ما أمامي. أخبرت رفاقي بما ألاحظه، محاولة أن أكون عيون الفريق بأسره، وبذلت قصارى جهدي ألّا أخيب أملهم.

تقدمنا حوالي مئة ياردة، ثم واجهتنا أولى المخاطر. كان هناك منعطف حاد بزاوية قائمة في النفق. رأيت الحطام يندفع عبر التيار ليصطدم بالجدار الصخري على اليسار، فأصبح قلقي على سلامة الغواصة أكبر، خاصة مع هذه الظروف العاتية. لم يكن أمامنا خيار سوى المحاولة. لم أُحذر رفاقي من الخطر، لأن التحذير كان سيزيد من القلق غير المجدي، فأي اصطدام بالجدار يعني نهايتنا السريعة. أمرت بالتحرك بأقصى سرعة، واندفعنا نحو المنعطف.

اضطررنا للاقتراب من الجدار الصخري على اليسار لتنفيذ المنعطف، معتمدين على قوة المحركات لعبور المياه المتلاطمة بأمان. نجحنا في ذلك، لكن الطريق كان شديد الضيق. وعندما حولنا الغواصة حول المنعطف، أصابنا التيار فجأة، فاندفعت المؤخرة نحو الصخور، واهتزت السفينة نتيجة الاصطدام القوي، وتبع ذلك صوت مزعج من احتكاك الهيكل الفولاذي بالجدار الصخري. توقعت لحظة تدفق المياه التي قد تدمّرنا، لكن بعد لحظات، وصلني الصوت المطمئن من الأسفل أن كل شيء على ما يرام.

بعد خمسين ياردة أخرى، واجهنا منعطفًا ثانيًا، ولكن هذه المرة نحو اليسار! كان المنحنى لطيفًا واتخذناه بسهولة. بعده أصبح الطريق أكثر هدوءًا، رغم أنني كنت أعلم أن أي شيء قد يظهر أمامنا في أي لحظة، وكانت أعصابي مشدودة بكل لحظة. بعد المنعطف الثاني، أصبح المجرى مستقيماً إلى حد ما بين مائة وخمسين إلى مائتي ياردة. وأصبح الماء أخف فجأة، مما رفع معنوياتي بشكل كبير. صرخت لأسفل لأولئك في الأسفل أنني رأيت ضوء النهار في الأمام، وتبع ذلك صرخة شكر عظيمة عبر السفينة.

بعد لحظات، خرجنا إلى مياه مشمسة، وبينما رفعت المنظار البحري، وقع بصري على مشهد لم أره في حياتي. كنا في وسط نهر عظيم، بدأت مياهه تصبح بطيئة، وكانت ضفافه تحيط بها سرخسيات ضخمة ترفع براعمها عالياً إلى السماء، حتى بلغت ارتفاع مئتي قدم، في سكون الهواء. فجأة، ظهر شيء على سطح النهر، وانطلق بسرعة نحو المنظار. رأيت فمًا واسعًا يتسع، ثم غشي الظلام كل شيء فشعرت برعشة تسري في جسدي.

هبطت إلى البرج بينما كان الكائن يقترب من المنظار. وبعد لحظات، اختفى، وأصبح بإمكاني الرؤية مجددًا. فوق الأشجار، ظهر أمامي كائن ضخم، ذا أجنحة تشبه أجنحة الخفاش، بحجم حوت، لكنه كان أقرب إلى الزواحف من أن يكون حوتًا. ثم، مرة أخرى، اندفع شيء نحو المنظار، ليحجبه عني. اعترف أنني كنت ألهث من شدة التوتر، وأنا أطالب بالظهور. إلى أي عالم غريب قادتنا الأقدار؟

مع غرق السطح في الماء، فتحت غطاء برج القيادة وخرجت.

بعد لحظات، رفع الطاقم غير المداومين غطاء السطح وصعدوا. كان أولسون يحمل نوبسًا تحت ذراعه. مرّت بضع دقائق في صمت مطبق، كأن كل واحد منا كان يعيش دهشته الخاصة. كان كل شيء حولنا غريبًا كما لو أننا في كوكب بعيد، حيث نُقلنا عبر الأثير إلى عالم مجهول. حتى العشب على الضفة القريبة كان غير طبيعي ينمو خصبًا وعاليًا، وكل نبتة تتوج بزهرة لامعة بنفسجية أو صفراء أو قرمزية أو زرقاء، كما لو كنا في حلم بديع. الحياة كانت غزيرة. الأشجار الضخمة الشبيهة بالسرخس كانت تمتلئ بالقردة والثعابين والسحالي، والحشرات العملاقة تطير وتطن في كل اتجاه. والكائنات الضخمة تتحرك فوق الأرض في الغابة الكثيفة، بينما كان صدر النهر يعج بالكائنات الحية، وفوقنا كانت أجنحة مخلوقات عملاقة ترفرف، كما لو كانت تلك الكائنات التي اعتقدنا أنها انقرضت منذ العصور السحيقة.

صرخ أولسون: «انظروا! هل ترون الزرافة التي تخرج من قاع البحر؟» نظرت إلى حيث أشار، فرأيت رقبة طويلة ولامعة تتوج برأس صغير يبرز فوق سطح النهر. بعد لحظات، ظهر الكائن بني اللون، لامعًا تتساقط المياه عنه ثم نظر إلينا بعينيه، فتح فمه الزواحفي وأصدر صفيرًا حادًا، ثم انطلق نحونا. كان الكائن بحجم كبير، نحو ستة عشر أو ثمانية عشر قدمًا، وشبه في ملامحه الـ«بليسيوصورات» التي كانت تعيش في العصر الجوراسي السفلي. اندفع نحونا بعنف، كالثور الهائج، وكأن هدفه كان تدمير الغواصة U-33 وابتلاعها.

كنا نسير ببطء في النهر، بينما الكائن يندفع نحونا بفم ،مفتوح،

ورقبته تمتد بعيدًا أمامه، وزعانفه الأربعة تضرب الماء بقوة، فتدفعه للأمام بسرعة هائلة عندما اقترب من جانب الغواصة، أطبق فكيه على إحدى العوارض المعدنية للسطح، وسحبها كما لو كانت قطعة خشب عتيقة في يد طفل عند هذا العرض من القوة الرهيبة تراجعنا جميعًا في نفس اللحظة، وسحب برادلي مسدسه وأطلق النار. أصابت الرصاصة رقبة الكائن، لكن بدلاً من أن يضعف، اشتعل غضبه وارتفع صراخه إلى صرخة حادة، وأخذ يرفع نصف جسده خارج الماء في محاولة لتسلق جانب الغواصة U-33، عازمًا على التهامنا.

المسلحون منا أطلقوا رصاصات عدة من مسدساتهم، ورغم أن الكائن أصيب مرارا، لم يظهر أي علامة على الاستسلام. بل استمر في اندفاعه نحو الغواصة غير مكترث بما أصابه. في تلك اللحظة، رأيت الفتاة تخرج إلى السطح، وتقف خلفي بقليل. وعندما رأيت الخطر يهددنا جميعًا استدرتها وأجبرتها على التوجه نحو الفتحة لم نتبادل الكلمات طوال الأيام الماضية، ولم نتحدث الآن أيضا؛ لكنها نظرت إلي بنظرة كانت أكثر من أي كلام قد يقال، نظرة مليئة بالتحدي. ثم فجأة انفلتت من قبضتي.

أدركت أنه لا يمكنني منعها إلا بالقوة، فدرت بجسدي نحوها محاولا أن أكون حاجزًا بينها وبين الكائن الغريب إذا ما تمكن من الوصول إلى السطح. وعندما فعلت ذلك، شاهدت الكائن يرفع أحد زعانفه فوق الدرابزين، ثم يندفع برأسه للأمام بسرعة خاطفة، مغرزًا إياه في جسد أحد الألمان. أطلقت النار على المخلوق في محاولة لإجباره على التخلي عن فريسته، لكنني شعرت كما لو أنني أطلقت النار على الشمس نفسها، بلا جدوى بينما كان الرجل يصرخ ويعوي،

تم سحب الألماني من على السطح وبمجرد أن أصبح الزاحف بعيدًا عن القارب، غاص تحت سطح الماء التي سحبته مع فريسته المصابة بالذعر، أعتقد أننا جميعًا اهتززنا من هول المأساة حتى قال أولسون إن ميزان القوى قد عاد إلى ما كان عليه. بعد مقتل بينسون، أصبحنا تسعة ضد تسعة، تسعة ألمان وتسعة «حلفاء»، كما كنا نسمي أنفسنا، والآن أصبح هناك ثمانية ألمان فقط. فلم نعد نعتبر الفتاة جزءًا من أي جانب، ربما لأننا كنا نراها فتاة، رغم أننا كنا نعلم الآن أنها أصبحت جزءا منا.

هكذا ساعدت ملاحظة أولسون في تهدئة الأجواء، على الأقل بالنسبة لنا، ثم تحولت أنظارنا مجددًا نحو النهر حولنا، نشأت فوضى عارمة من الصرخات والفحيح، بينما وجدنا وعاء يغلي من الزواحف البشعة الجائعة والمليئة بالغضب، دون أي شعور بالخوف. كانت الزواحف تتسلق وتلتوي وتتدافع نحو السطح، مما أجبرنا على التراجع، رغم أننا فرغنا مسدساتنا في أجسادهم. كانت هناك أنواع الكائنات الرهيبة ضخمة، ومشوهة، وبشعة ووحشية وكأنها كابوس ميسوزويكي حقيقي.

رأيت الفتاة تنسحب إلى الأسفل بأسرع ما يمكن ومعها نوبس الذي بدا وكأنه فقد صوته من الرعب أعتقد أنه وللمرة الأولى في حياته عرف الخوف ولا أستطيع لومه. بعد الفتاة، أرسلت برادلي ومعظم الحلفاء ثم الألمان الذين كانوا على السطح وكان فون شونفورت لا يزال مسجيا في القيود أسفل السفينة. وكانت الكائنات تقترب منا بشكل مرعب، قبل أن أسقط من خلال فتحة السطح وأغلق الغطاء ورائي. ثم توجهت إلى البرج، وأمرت بالسرعة

القصوى، آملاً في أن نبتعد عن تلك الكائنات المفزعة؛ لكن كانت محاولاتنا عبثًا ولم تجد الكائنات صعوبة في التفوق على غواصتنا U-33، وكلما تقدمنا في النهر، زاد عدد المحاصرين لنا شعرت بالقلق من الإبحار بسرعة عالية في نهر غريب، فأصدرت أوامر بتقليص السرعة، وانتقلنا ببطء عبر المياه الثقيلة والمكتظة. كنت ممتنا أن دخولنا إلى كابرونا كان داخل غواصة، بدلًا من أي نوع آخر من السفن. فهمت تمامًا كيف كان يمكن أن يكون مرورنا داخل غواصة أفضل بكثير، بدلًا من أي نوع آخر من السفن. فهمت تمامًا كيف كان يمكن أن يتم غزو كابرونا في الماضي من قبل مستكشفين متهورين دون أن يصل الخبر إلى العالم الخارجي. أستطيع أن أؤكد لكم، أنه لا يمكن لأي إنسان أن يمر عبر هذا النهر العميق البطيء حيًا إلا على متن غواصة.

واصلنا الإبحار في النهر لمسافة أربعين ميلاً تقريبًا قبل أن يحل الظلام. كانت المخاوف تلاحقني من الغرق والبقاء في قاع النهر طوال الليل، فقد بدا الطين العميق كأنه فخ قد يبتلعنا بلا رحمة. ولأن المراسي لم تسعفنا، اضطررنا إلى الرسو قريبًا من الشاطئ. في فترة قصيرة، وقبل أن تداهمنا الزواحف، قمنا بربط الغواصة بجذع شجرة ضخمة. جمعنا بعضًا من مياه النهر، ووجدناها، رغم سخونتها، أكثر عذوبة مما كانت عليه من قبل. وكان لدينا ما يكفي من الطعام، وبإضافة الماء شعرنا بشيء من الانتعاش، لكننا افتقدنا اللحوم الطازجة، إذ مرت أسابيع منذ آخر مرة تذوقناها. وبينما كنا نحدق في تلك الزواحف، خطرت لي فكرة جريئة: ربما تكون قطعة أو قطعتان من لحم أحدها وجبة لا بأس بها.

صعدت إلى سطح الغواصة ومعي بندقية، من بين عشرين أخرى على متن U-33. وما إن ظهرت، حتى اندفع نحوي مخلوق ضخم، يصعد إلى السطح بجرأة. انسحبت إلى قمة برج القيادة، ولكن عندما رفع جسده الهائل إلى المنصة الصغيرة التي كنت أقف عليها، أطلقت رصاصة بين عينيه. توقف المخلوق لوهلة ونظر إلي كأنما يقول: «ما هذا؟ لهذا الشيء إبرة! ينبغي أن أحذر» لكنه لم يتراجع؛ بل مد عنقه الطويل، وفتح فمه الواسع واندفع نحوي. لكنني لم أكن هناك. اندفعت إلى داخل البرج وسقطت للخلف، كدت أهلك بسبب ارتباكي.

عندما رفعت رأسي، كان عنقه الطويل ورأسه الصغير يتجهان نحوي مباشرة. فاندفعت إلى مكان أكثر أمانًا، متمددًا على أرضية المركز. كان أولسون قد شاهد المشهد من الخارج، فأسرع بحثًا عن فأس. لم يتردد للحظة، وعاد ليصعد السلم ويبدأ بتقطيع ذلك الوجه القبيح. رغم الرصاصة التي استقرت بين عينيه والجروح التي مزقت جسده، لم يتوقف المخلوق عن محاولته اقتحام البرج والتقاط أولسون، رغم استحالة مرور جسده الضخم عبر الفتحة ولم يهدأ إلا بعدما تمكن أولسون من فصل رأسه عن جسده. بعد ذلك، خرجنا إلى السطح؛ أحدنا يراقب، والآخر يقطع الجزء الخلفي من المخلوق، الذي أطلق برادلي عليه اسم بلسيوصور أولسوني. في هذه الأثناء، قام أولسون بفصل عنقه الطويل، معلنًا أنه سيعد منه حساءً شهيًا.

بينما كنا ننظف البرج من الدماء وبقايا المعركة، كان الطاهي قد بدأ بإعداد شرائح اللحم الطازجة وغلي المرق على الموقد الكهربائي. رائحة الطعام المنبعثة غمرت المكان وأثارت فينا شعورًا غريبا : مزيج من الامتنان والانبهار بهذا الكائن العجيب الذي تحول في

النهاية إلى وليمة دسمة.

الفصل الخامس

كانت شرائح اللحم التي تناولناها تلك الليلة شهية بحق، وفي صباح اليوم التالي، جربنا مرقها الذي لم يقل لذة عنها. شعور غريب تملكنا ونحن نأكل مخلوقًا كان يُفترض بحسب قوانين علم الحفريات- أنه انقرض منذ ملايين السنين. هذا التناقض، بين الجدة الغامضة والإحراج الطفيف، لم يثنِنا عن استمتاعنا بالوجبة، بل بدا أنه زاد شهيتنا، خصوصًا «أولسون»، الذي أكل بشراهة حتى خشيت أن ينفجر.

في تلك الليلة، انضمت إلينا الفتاة على العشاء في المقهى الصغير المخصص للضباط، الواقع خلف غرفة الطوربيد. الطاولة الضيقة وُسّعت لتسعنا جميعًا، وأُعدت المقاعد الأربعة. لأول مرة منذ أيام، جلسنا لتناول الطعام بهدوء، ولأول مرة منذ أسابيع، تذوقنا شيئًا مختلفًا عن الوجبات الرتيبة والمحدودة لطاقم غواصة تعاني من الفقر والندرة. جلس الكلب نوبس بيني وبين الفتاة، يتناول قطعًا من لحم البليزيوصور، متجاهلًا كل قواعد السلوك المهذب. ورغم نظرته الخجولة لي، التي عكست إدراكه بأنه كلب لا يحق له الأكل على الطاولة، لم أستطع حرمانه من نصيبه وهو يعاني شح الطعام. حتى ليس لم تعترض، فاستسلم الجميع لهذا المشهد العفوي.

أما ليس، فكانت تعاملني ببرود مهذب، لكنها أظهرت لطفًا واضحًا تجاه برادلي وأولسون. لم تكن من النوع الذي يعبر عن مشاعره بسهولة، وهذا ما جعلني أقدر أي اهتمام تمنحه لي، مهما بدا بسيطًا. كانت الوجبة ممتعة على العموم، باستثناء لحظة حرجة عندما

اقترح أولسون مازحًا أن المخلوق الذي نتناوله قد يكون نفس البليزيوصور الذي التهم أحد الألمان. أثار هذا التعليق قلق الفتاة، واحتجنا لبعض الوقت لإقناعها بالعودة إلى وجبتها. نجح برادلي أخيرًا في تهدئتها، مذكرًا بأننا ابتعدنا مسافة أربعين ميلًا عن موقع الحادثة، وأننا خلال الرحلة رأينا آلاف الكائنات المشابهة في النهر، مما يجعل احتمال كونه نفس المخلوق شبه مستحيل. ثم ختم ضاحكًا: «على أي حال، هذه مجرد حيلة من أولسون ليحصل على نصيب إضافي من اللحم.»

تطرقنا في حديثنا إلى المستقبل، نحاول أن نتنبأ بما قد ينتظرنا، لكن كل ما استطعنا فعله كان مجرد التخمين. إن كانت الأرض مليئة بهذه الوحوش القبيحة وأشباهها، فإن البقاء عليها سيكون مستحيلًا. اتفقنا على أن هدفنا هو العثور على الماء العذب، واللحوم، والفواكه القابلة للأكل، قبل أن نتابع رحلتنا نحو البحر المفتوح. في النهاية، انسحبنا إلى أسرّتنا الضيقة، قلوبنا مفعمة بالأمل، وأرواحنا في سلام مع أنفسنا ومع خالقنا. نمنا نومًا عميقًا، منتظرين صباحًا جديدًا، لا نعلم أنه سيحمل مفاجآت أخرى، فقد اكتشفنا لاحقًا أن السحالي لا تبدأ تغذيتها حتى وقت متأخر من الصباح.

كان الفجر حتى التاسعة صباحًا وقتًا يكتنفه هدوء غريب، حيث بدا نشاط الكائنات في أدنى مستوياته، على عكس ذروته في ساعات لاحقة. لم نصادف أيًا من الزواحف العملاقة خلال رحلتنا، رغم أنني أعددت المدفع على السطح، متأهبًا لأي طارئ. كان أملي أن تردعها القذائف، وإن لم أكن واثقًا تمامًا من ذلك. وبينما واصلنا السير، غصت الأشجار من حولنا بالقردة، تتباين في أحجامها

وألوانها، مضفية حيوية غامضة على الغابة. وفي لحظة خاطفة، خُيل إلينا أننا رأينا كائنًا يشبه الإنسان يراقبنا بصمت من أعماق الظلال.

حين استأنفنا الإبحار نحو أعالي النهر، ظهرت أمامنا قناة أصغر تتدفق من الجنوب إلى المجرى الرئيسي، أعقبها جزيرة تمتد بطول خمسة أو ستة أميال. وبعد خمسين ميلًا، انفتح أمامنا نهر أكبر ينبع من الشمال الغربي، بينما انحرف النهر الرئيسي ليجري باتجاه الشمال الشرقي والجنوب الغربي. ومع تقدمنا، أخذت البيئة المحيطة تتغير تدريجيًا؛ اختفت الزواحف من المياه، وتحولت ضفاف النهر إلى غابات تبدو وكأنها حدائق طبيعية. تناغمت أشجار الكافور والأكاسيا مع نباتات السرخس، كما لو أن زمنين جيولوجيين متباعدين امتزجا في مشهد واحد. تقلصت كثافة العشب، لكنها لم تخلُ من بقع خضراء متألقة تنثر جمالها هنا وهناك، بينما قلت الكثافة الحيوانية بشكل ملحوظ.

بعد عدة أميال أخرى، اتسع النهر بشكل مفاجئ ليكشف عن مساحة مائية مترامية الأطراف تمتد حتى الأفق. أبحرنا إلى بحر داخلي شاسع، لا يبدو منه سوى الساحل القريب. كانت المياه تعج بالحياة؛ أسماك لا حصر لها تسبح بأعداد مهولة، وكأنها تنتمي لعالم من الخيال. وعلى الرغم من ظهور بعض الزواحف، إلا أنها كانت نادرة مقارنة بالأسماك التي بدت وكأنها بالملايين أو حتى المليارات.

كان البحر الداخلي يتميز بمياهه الدافئة التي تكاد تكون حارة، وجو ثقيل مشبع بالرطوبة. بدا غريبًا كيف أن «كابرونا» الجليدية،

حيث تسبح الجبال الجليدية وتزمجر الرياح الباردة، تخفي خلفها عالمًا ينساب فوقه نسيم خفيف دافئ، يشبه دفء غرفة بخار أكثر مما يشبه حرارة فرن مشتعلة. شيئًا فشيئًا، تخلينا عن بعض ملابسنا، محتفظين بما يحفظ الحياء، إذ لم تكن حرارة الشمس لاهبة، بل أشبه بملمس ناعم يحتضن الأرواح.

تابعنا الإبحار بمحاذاة الساحل الشمالي الغربي للبحيرة، نأخذ قياسات العمق باستمرار. كان القاع صخريًا، شديد الانحدار نحو المنتصف، حتى إننا في إحدى المحاولات، لم نتمكن من العثور على قاع في العمق البعيد. على طول الشاطئ، ظهرت منحدرات بعيدة أقل انحدارًا بقليل من تلك التي تحيط بـ«كابرونا» من جهة البحر. وبدأت تتشكل في ذهني نظرية حول هذا المكان: ربما كانت «كابرونا» في العصور السحيقة جبلًا شامخًا، وربما أعظم جبل في العالم، لكن انفجارًا بركانيًا مدمرًا أطاح بقمتها، تاركًا خلفه فوهة عملاقة تشكلت منها هذه البحيرة الداخلية. وربما، مع مرور الزمن، غرقت القارة التي كانت تحيط بها، تاركة «كابرونا» وحدها تطفو فوق سطح المحيط.

كل شيء هنا، من الجدران المحيطة إلى البحيرة والينابيع الساخنة وحتى تنوع النباتات والحيوانات، يؤكد هذه الفرضية. وبينما أبحرنا، استمرت الغابات المفتوحة في الظهور، تتخللها سهول صغيرة حيث رأينا الحيوانات ترعى بسلام. ومن خلال المنظار، استطعت رؤية قطعان الغزلان وهي تتحرك بخفة وحرية، وكأنها تنتمي إلى عالم جديد يولد من هذا المكان العجيب.

كانت الغابة تموج بالحياة البرية؛ أنواع من الظباء الحمراء الكبيرة والرشيقة، وما بدا كأنه خيول برية، ورأينا كتلة ضخمة تلوح في الأفق ربما كانت ثورًا بيسونًا عظيمًا. بدا أن الأرض هنا تنبض بالصيد الوفير، موحية بأن الجوع لن يكون خطرًا على قاطني «كابرونا». لكن الحيوانات كانت حذرة؛ إذ ما إن شعرت بوجودنا، حتى انتصبت رؤوسها وذيولها، ومن ثم انطلقت قافزة مبتعدة، متبعة بعضها البعض في تتابع، حتى اختفت تمامًا بين غياهب الغابة المتشابكة. وحده الثور الضخم ثبت مكانه، يرفع رأسه بشموخ يراقبنا ونحن نمر، وكأنما يختبرنا، ثم عاد إلى رعيه غير آبه.

بعد عشرين ميلًا من مصب النهر، بدأت المنحدرات الرملية المنخفضة تبرز على الجانبين، شاهدة صامتة على الاضطرابات العظيمة التي مزقت كابرونا في أزمنة سحيقة، حيث اختلطت التشكيلات الصخرية لعصور متباعدة في فوضى خلابة؛ البعض اندمج في نسيج واحد، والبعض الآخر بقي على حاله، وكأن الزمن توقف عنده. تابعنا الإبحار بمحاذاة هذه المنحدرات لمسافة عشرة أميال، حتى وصلنا إلى شق عريض بدا وكأنه يفضي إلى بحيرة أخرى، فضاء جديد يعج بالأسرار.

رغبة في استكشاف هذه البحيرة والبحث عن مياه عذبة، قررنا التوغل فيها، وبعد قياس العمق والتأكد من سلامة المسار، وجهت الغواصة U-33 نحو خليج صغير محمي، يزدان بجمال طبيعي يأسر النفوس. كانت المياه صافية كالكريستال، ممتدة حتى بضعة ياردات من الشاطئ، تعكس لون السماء بتناسق بديع. وبينما كنا نبحر ببطء، لاحظ اثنان من الألمان على متن السفينة، للمرة الثانية،

مخلوقًا يشبه الإنسان يقف عند أطراف الأشجار، يراقبنا من بعيد بصمت غامض. قريبًا من ذلك الموقع، اكتشفنا فم مجرى مائي صغير يصب في الخليج. كان أول مصدر للمياه نجده منذ مغادرتنا النهر الرئيسي، فقررت استغلال الفرصة لاختبار مياهه. اقتربنا بحذر من الشاطئ، عالمين أن هذه المياه تعج بالمفترسات، وإن كانت أقل كثافة مما رأيناه سابقًا. أمرت بفتح صهاريج الغمر لتقليل ارتفاع السفينة وزيادة ثباتها، حتى لمس مقدمتها بلطف الأعشاب التي تزين الشاطئ، بينما ظل القاع بعيدًا عنا.

نزل أحد الرجال، مسلحًا، يحمل حبلًا لربط السفينة بشجرة صغيرة على الشاطئ، ترافقه حراسة مشددة تحسبًا لأي خطر مباغت قد ينقض من بين الظلال. لم تدم المهمة طويلًا؛ عادوا سالمين، تاركين السفينة مربوطة وآمنة، بينما أسقطت مرساة المؤخرة لزيادة الثبات. جمعت الرجال جميعًا، بمن فيهم فون شينفورتس، وألقيت خطابًا فيهم. قلت لهم بلهجة حازمة لكنها مشبعة بالأمل:

«نحن الآن في عالم جديد، بعيدين عن أوطاننا، منقطعون عن ماضي صراعاتنا. إن بقائنا يعتمد على وحدتنا، لا مكان هنا للأحقاد العرقية أو السياسية. كما لو أن الزمن قد حملنا بعيدًا ملايين السنين عن حربنا وعن كل أسباب نزاعنا. إذا أردنا النجاة في هذه الأرض الغامضة، فعلينا أن نكون فريقًا واحدًا، نتصدى معًا لما يواجهنا من مخاطر، ونعمل بيد واحدة لإعادة بناء مصيرنا بعيدًا عن عبثية الحروب التي خلفناها وراءنا.»

في عمق الغموض الذي يكتنف الغواصة المحاصرة، وقف القائد

الإنجليزي متحدثًا بثقة ووضوح، موجهًا خطابه إلى الجمع:

«أيها السادة، هل يُعقل أن تستمر بيننا عداوة لا معنى لها بينما يحتضر العالم خارج كابرونا؟ الإنجليز يمكنهم القضاء على الألمان أو العكس، دون أن يتغير مسار الحرب أو يلتفت أحد لهذه المجازر الصغيرة. لذا، أطرح عليكم السؤال بجلاء: هل نتحد ونبني معًا طريقًا نحو النجاة، أم نختار الانقسام، نعيش في صراع حتى نفنى جميعًا؟ لا تخطئوا فهمي، فرص النجاة شحيحة، بل تكاد تكون معدومة. مواردنا من الطعام والماء تكفينا الآن، والغواصة U-33 قادرة على الصمود فترة طويلة، لكن الوقود ينفد بسرعة، ومع نفاده، لن نحظى بفرصة لعبور المحيط أو اجتياز الحواجز المائية. إذن، القرار بين أيديكم.»

توجه بنظره نحو فون شينفورتس، الذي حدق فيه بتأنٍ قبل أن يسأله بحدة:

«إن وافقنا على اقتراحك، ماذا سيكون وضعنا إذا ما تمكّنا من الهرب؟»

أجابه القائد بحزم:

«إذا اتحدنا بإخلاص وعملنا معًا، سنغادر كابرونا كرفاق على قدم المساواة. وعند بلوغنا البحر المفتوح، سنتوجه إلى أقرب ميناء محايد ونُسلّم أنفسنا للسلطات. ستحتجزنا تلك السلطات حتى نهاية الحرب، لكن هذا خيار أكثر عدلًا من هلاكنا هنا.»

بدهشة وهدوء، وافق فون شينفورتس على الخطة، ثم أشار إلى

رجاله لقبولها. خاطب القائد كل جندي على حدة، وانتزع منهم عهودًا بالالتزام الصارم، مضيفًا:

«سنعمل كوحدة عسكرية منظمة. أنا القائد، برادلي سيكون الضابط الأول، وأولسن الضابط الثاني، وفون شينفورتس ضابطًا مساعدًا مسؤولًا عن رجاله. أربعة قادة يشكّلون محكمة عسكرية للفصل في النزاعات ومعاقبة المخالفين، وصولًا إلى الإعدام إن تطلب الأمر.»

توزيع المهام بدأ على الفور:

الأسلحة والذخائر أعطيت للألمان، وبقي برادلي مع خمسة من رجاله لحراسة الغواصة، بينما تحرك الآخرون نحو الشاطئ لاستكشاف المنطقة. أول ما اختبروه كان ماء الجداول العذبة. كانت باردة ونقية، بعيدة عن خطر الزواحف التي تنفر من البرودة، وهو اكتشاف جلب لهم راحة كبيرة.على ضفاف الجدول، حيث تنتشر أشجار شبيهة بالرماد والزعرور، وجدوا حياة جديدة، سمك السلمون يتراقص في الحفر المائية، والجداول الباردة دعوة للاستجمام، بينما كانت الأشجار تتغذى من المياه النقية، مانحة المكان روحًا من الخصوبة والطبيعة البكر، مغايرة للينابيع الحارة التي عثروا عليها لاحقًا.

كانت هذه البداية لرحلة نحو مصير مجهول، حيث امتزجت الأخوة المؤقتة بحذر الصراعات الدفينة، بينما يخطون أولى خطواتهم خارج حدود العداء. وقف القائد الإنجليزي بخطى واثقة ونظرة تجمع بين الحزم والأمل، خاطب الرجال الذين بدا التعب

والقلق جليًا على ملامحهم قائلاً:

«أخبروني، أيها الرجال، ماذا سيحدث لو قضى الإنجليز على آخر ألماني هنا، أو لو قتل الألمان آخر إنجليزي؟ لا شيء. لن تغيّر هذه النهاية شيئًا من مسار الحرب على الجبهة الغربية، ولن تحرك ساكنًا في رأي أي دولة محاربة أو محايدة. لذا، دعونا نواجه الأمر بوضوح: هل ندفن عداواتنا ونعمل يدًا بيد في سبيل النجاة، أم نظل منقسمين، نصف مسلحين، بانتظار أن يبتلعنا الموت واحدًا تلو الآخر؟ واعلموا أن الحقيقة القاسية أمامنا هي أن فرصنا في رؤية العالم الخارجي مرة أخرى ضئيلة للغاية. لدينا طعام وماء يكفيان الآن، ويمكننا تزويد الغواصة U-33 للإبحار لبعض الوقت، ولكن الوقود ينفد. وبدونه، لن يكون هناك أمل في عبور المحيط، فالغواصة هي سبيلنا الوحيد لاجتياز الحواجز البحرية. الآن، ما هو جوابكم؟»

توجّه بعدها إلى فون شينفورتس، الذي رمقه بنظرة حذرة ومليئة بالشكوك، ثم قال:

«إذا وافقنا على اقتراحك، فما سيكون وضعنا إن تمكّنا من الهرب باستخدام الغواصة؟»

أجابه القائد الإنجليزي بهدوء وثبات:

«إذا اتفقنا جميعًا على العمل بإخلاص، فسنغادر كابرونا متساوين كرفاق في المحنة. وإذا ما تحقق ذلك الاحتمال الضئيل ووصلنا إلى البحر المفتوح، فسنبحر إلى أقرب ميناء محايد، ونسلّم أنفسنا للسلطات هناك. سيكون علينا قبول الاحتجاز حتى نهاية الحرب،

لكنه خيار عادل، وأفضل من الفناء هنا.»

لدهشته، وافق فون شينفورتس على الخطة بعد لحظة من التأمل، وأكد ولاءه لها. بعدها، توجه القائد إلى كل جندي ألماني على حدة، وانتزع منهم وعدًا بالالتزام الكامل بالشروط المطروحة. ثم أضاف بتصميم:

«من الآن فصاعدًا، سنعمل كتنظيم عسكري منضبط. سأكون القائد العام، وبرادلي سيكون الضابط الأول، وأولسن الضابط الثاني. سيتولى فون شينفورتس دور الضابط المساعد المسؤول عن رجاله. نحن الأربعة سنشكّل محكمة عسكرية تُحاسب أي خرق للانضباط، حتى إصدار الأحكام القصوى عند الضرورة.»

بعد الانتهاء من التنظيم، وزّع القائد الأسلحة والذخيرة على الألمان، تاركًا برادلي مع خمسة من الرجال لحراسة الغواصة. أما البقية، فتحركوا نحو الشاطئ لاستكشاف المنطقة المحيطة، حيث بدأوا أولى خطواتهم نحو الحياة مجددًا، متحدين مصيرهم وسط عداوات الماضي التي تحوّلت إلى شراكة مشروطة بالأمل.

جميع الإنجليز، أو قد يقتل الإنجليز آخر ألماني، دون أن يؤثر ذلك على نتيجة أي معركة صغيرة على الجبهة الغربية أو على رأي أي فرد في أي دولة محاربة أو محايدة. لذلك أطرح عليكم السؤال بوضوح: هل ندفن عداواتنا ونعمل معًا ومن أجل بعضنا البعض ونحن في كابرونا، أم يجب أن نظل منقسمين ونصف مسلحين، ربما حتى يأتي الموت ويأخذ آخرنا؟ ودعوني أخبركم، إذا لم تكونوا قد أدركتم بالفعل، فإن الفرص ضئيلة للغاية بأن أي واحد منا سيرى العالم

الخارجي مرة أخرى. نحن آمنون الآن من حيث الطعام والماء؛ يمكننا تزويد الغواصة U-33 للإبحار لفترة طويلة؛ لكننا عمليًا نفدنا من الوقود، وبدون الوقود لا يمكننا أن نأمل في الوصول إلى المحيط، لأن الغواصة هي الوحيدة القادرة على المرور عبر جرف الحواجز. ما هو جوابكم؟» ثم توجهت إلى فون شينفورتس.

نظر إليّ بنظرة مزعجة وطلب أن يعرف، في حال وافقوا على اقتراحي، ما هو وضعهم في حال تمكنا من العثور على طريقة للهرب باستخدام الغواصة U-33. أجبت بأنني أعتقد أنه إذا عملنا جميعًا معًا بإخلاص، يجب أن نغادر كابرونا على قدم المساواة، ولهذا اقترحت أنه إذا تطور الاحتمال البعيد لفرارنا في الغواصة إلى حقيقة، فيجب علينا فورًا التوجه إلى أقرب ميناء محايد ونسلم أنفسنا إلى السلطات، حيث ربما سيتم احتجازنا طوال مدة الحرب. لدهشتي، وافق على أن هذا عادل وأخبرني أنهم سيقبلون بشروطي وأنني يمكنني الاعتماد على ولائهم للقضية المشتركة.

شكرته ثم خاطبت كل واحد من رجاله على حدة، وأعطاني كل منهم كلمته أنه سيبقى ملتزمًا بكل ما طرحته. وكان من المفهوم أيضًا أننا سنتصرف كتنظيم عسكري تحت القواعد والانضباط العسكري، أنا كقائد، مع برادلي كضابط أول وأولسن كضابط ثاني، يقودان الإنجليز؛ بينما كان فون شينفورتس سيعمل كضابط ثاني إضافي ويتولى مسؤولية رجاله. وكان الأربعة منا يشكلون محكمة عسكرية يُمكن محاكمة الرجال بموجبها حكم عليه بالعقاب بسبب مخالفة القواعد والانضباط العسكري، حتى وصول الأمر إلى إصدار حكم بالإعدام.

ثم قمت بتوزيع الأسلحة والذخيرة على الألمان، وترك برادلي وخمسة من الرجال لحراسة الغواصة بينما انطلق البقية نحو الشاطئ، توجهنا نحن نحو استكشاف الجداول الصغيرة، التي اكتشفنا فور تذوق مياهها أنها عذبة، نقية، وباردة على نحو مدهش. لدهشتنا، كانت هذه الجداول خالية تمامًا من أي زواحف خطيرة، إذ تبين لنا لاحقًا أن تلك المخلوقات تكره البرودة؛ فدرجات الحرارة التي تقل عن 70 درجة فهرنهايت تصيبها بالخمول، مما يجعلها تتجنب المياه الباردة.

كانت الجداول مليئة بسمك السلمون البري، وتحوي حفرًا عميقة تصلح للاستحمام، بينما كانت ضفافها تزدان بأشجار شبيهة بالرماد والزعرور والبلوط. هذه النباتات بدت وكأنها تستمد قوتها من برودة الهواء فوق المياه ومن الجداول نفسها، بدلًا من الينابيع الدافئة التي كانت وفيرة في مناطق أخرى استكشفناها لاحقًا.

إعادة التزود والاستكشاف

بدأنا يومنا بملء خزانات الغواصة U-33 بالمياه العذبة، وبعد إتمام المهمة، انطلقنا للصيد واستكشاف المناطق الداخلية. كان معي أولسن، فون شينفورتس، إنجليزيان، وألمان اثنان، بينما بقي عشرة رجال للحراسة. حاولت ترك كلبي «نوبس» على متن الغواصة، لكنه أصر على مرافقتي، وكأنه يعلم أن مغامرة جديدة بانتظاره.

اتبعنا مجرى الجدول صعودًا عبر أرض خلابة امتدت لحوالي خمسة أميال، حتى وصلنا إلى منبعه في سهل مغطى بالحصى. من بين الصخور انبثقت عشرون ينبوعًا باردة كالجليد. إلى الشمال، ارتفع جرف من الحجر الرملي، تزينت قاعدته بأشجار طويلة أخفت معظمه عن الأنظار، بينما امتدت غربًا أراضٍ مستوية تغطيها غابات متناثرة. هناك، رأينا أول صيد لنا؛ غزالًا أحمر كبيرًا يرعى بعيدًا دون أن يلحظ وجودنا.

مواجهة المجهول

أمرتهم بالبقاء في مكانهم بينما تسللت بصحبة وايتلي. اقتربنا من الغزال حتى أصبحنا على بعد مئة ياردة. وفجأة، رفع الغزال رأسه مزهوًا بقرنيه العريضين، كما لو أنه تنبه لوجودنا. أطلقنا النار في آن واحد، وأسقطناه أرضًا. ركضنا لنجهز عليه بسكاكيننا، ولكن ما إن اقتربنا من صيدنا حتى تجمدنا في مكاننا. نظرت إلى وايتلي، ونظر إلي، ثم عدنا بأبصارنا نحو الغزال.

قال وايتلي بذهول: «يا إلهي! ما هذا، سيدي؟»

أجبته بهدوء ساخر: «يبدو لي أن أحد الآلهة الذي كُلّف بصنع الفيلة قرر، خطأً، العمل في قسم السحالي.»

خرج من الغابة مخلوق هائل، أشبه بسحلية عملاقة. بلغ ارتفاعه عشرة أقدام على الأقل، وكان يمتلك ذيلًا طويلًا وقويًا يساوي طول جسمه، وأرجلًا خلفية عضلية وأخرى أمامية قصيرة. قفز نحو الغزال الذي أسقطناه، والتهمه بنهم دون أن يترك لنا فرصة للتدخل.

كان المخلوق يقفز كأنما يحاكي الكنغر، مستخدمًا قدميه الخلفيتين وذيله لدفعه. وعندما استقام، استند على ذيله الثقيل ليحافظ على توازنه. رأسه كان طويلًا وعريضًا، وفكه ممتدًا إلى ما بعد العينين، مليئًا بأسنان حادة وطويلة كأنها خُلقت للتمزيق. أما جسده، فغطته قشور مزيّنة ببقع سوداء وصفراء محاطة بحواف حمراء عريضة، بينما كان أسفل جسده يميل إلى اللون الأخضر الفاتح.

التفت إلي وايتلي بعد لحظة صمت مشوب بالخوف وقال بنبرة مرتجفة: «سيدي... ألا نحصل على العصفور المزهر؟»

ضحكت رغم الموقف وقلت له: «إذا نجونا من هذا الشيء أولًا!»

أمرته أن ينتظر حتى أعطي الإشارة، لنطلق النار في اللحظة ذاتها. كانت رصاصته تستهدف القلب، بينما وجهت رصاصتي إلى العمود الفقري. أجابني بثقة الجندي: «ارفع القلوب يا سيدي، حاضر يا سيدي»، ورفع بندقيته إلى كتفه، مستعدًا للضغط على الزناد. رنّت الطلقتان معًا كأنهما صوت واحد، واخترقتا جسد المخلوق بدقة قاتلة. لكنه، رغم إصابته، رفع رأسه بتحدٍّ، وراح ينظر حوله حتى التقت عيناه بنا. أطلق هسهسة مروعة، تصاعدت في حدتها حتى تحولت إلى صرخة شنيعة ملأت الأجواء. ثم انطلق نحونا بجنون لا يوصف. صرخت: «اهزمه يا وايتلي!»، بينما أدرت ظهري وركضت بكل ما أوتيت من سرعة. كنا على بعد ربع ميل تقريبًا من بقية الفريق، الذين كانوا يراقبون المشهد عن بعد، ممددين فوق العشب الطويل. رأوا كل ما حدث منذ البداية، وها هم الآن ينهضون مسرعين نحونا، يتقدمهم نوبس كالسهم المنطلق.

لكن الوحش كان أسرع، ثم ضاق الفارق بيننا بسرعة. وفجأة، طار نوبس من فوقي كنيزك يخترق السماء، مندفعًا نحو الكائن المخيف دون تردد. صرخت بأعلى صوتي محاولًا استدعاءه، لكنه تجاهلني تمامًا، وكأن ندائي لم يصل إليه. لم أحتمل فكرة أن يُضحى به دون قتال، فتوقفت واستدرت لأواجه الوحش بشجاعة يائسة. لدهشتي، بدا أن المخلوق يولي اهتمامًا أكبر بـ نوبس أكثر منا وبأسلحتنا.

توقف في مكانه، يحدق في الكلب الصغير الذي واجهه بشجاعة تفوق حجمه. انقض الوحش على «نوبز» بهدير يهز الأرض، محاولًا سحقه بفكّيه القويين. لكن «نوبز» كان أسرع منه بكثير؛ تفادى الهجوم بخفة البرق، ودار حول الوحش حتى وصل إلى ذيله، حيث انقض عليه بشراسة، غارسًا أنيابه فيه.

لكن هنا، ارتكب نوبس أكبر خطأ في حياته. وفي اللحظة الحاسمة، لكن هنا، ارتكب نوبس أكبر خطأ في حياته. وفي اللحظة الحاسمة وصل أولسون وفون شونفورت مع رجالهم تقدمنا جميعًا بحذر نحو الجثة الضخمة الممددة على الأرض. المشهد كان مهيبًا، و نوبس يقف فوق ذيل الوحش كأنه قائد منتصر في معركة أسطورية، يثبت أن الشجاعة لا تقاس بالحجم، بل بالقلب وعلى الأرض كان الكائن جثة هامدة تمامًا. أظهرت المعاينة أن رصاصة وايتلي اخترقت قلبه، بينما أصابت رصاصتي الحبل الشوكي.

صرخت بحيرة: «لكن لماذا لم يمت فورًا؟»

أجاب فون شونفورت بجفاء معتاد: «لأن الكائن ضخم جدًا، وجهازه العصبي بدائي إلى درجة أن موت الدماغ استغرق وقتًا حتى يدركه. كان جسده ميتًا فور اختراق الرصاص له، لكنه لم يعلم بذلك إلا بعد ثوانٍ… ربما دقيقة. إذا لم أكن مخطئًا، فهذا ألوصور من العصر الجوراسي المتأخر، وعُثر على بقاياه سابقًا في وسط وايومنغ، بالقرب من ضواحي نيويورك.» ابتسم رجل إيرلندي يُدعى برادي، علمت لاحقًا أنه خدم ثلاث سنوات في وحدة المرور بشرطة شيكاغو.

في تلك اللحظات، كنت أنادي على كلبي نوبس، وقلبي يخفق بقلق ممزوج بالخوف من أن أجده ممزقًا أو ميتًا بين أشجار الأكاسيا. ولكن فجأة، ظهر من بين الجذوع، أذناه مفرودتان وذيله بين ساقيه، يتحرك بجسده الملتوي على هيئة حرف S، وكأنه يستجدي الأمان. لم يكن مصابًا سوى ببعض الكدمات الطفيفة، لكنه بدا أكثر الكلاب استسلامًا وخضوعًا رأيته على الإطلاق.

بعد أن جمعنا بقايا الأيل الأحمر، وقمنا بتقطيعه وتنظيفه، بدأنا السير عائدين إلى الغواصة. وخلال الطريق، انخرطنا أنا وأولسون وفون شونفورت في نقاش حول احتياجاتنا العاجلة. واتفقنا جميعًا على أن الأولوية القصوى هي إنشاء معسكر دائم على الشاطئ. كانت الغواصة أشبه بمكان معزول، غير مريح للإقامة لفترات طويلة، خاصة في هذا المناخ الحار ومع المياه الدافئة التي تجعل البقاء بداخلها أمرًا شبه مستحيل. لذا، قررنا بناء معسكر محصن بجدران تحمينا من أي أخطار محتملة.

الفصل السادس

بينما كنا نسير ببطء نحو الغواصة، منشغلين بوضع الخطط، باغتتنا فجأة قذيفة مدوية هزت الأجواء بصوتها الذي لا يمكن أن يُخطئ.

صاح فون شونفورت: «قذيفة من الغواصة U-33!».

تساءل أولسون بقلق: «ماذا يعني ذلك؟».

«إنهم في مأزق»، أجبت بحزم نيابة عن الجميع، «علينا العودة إليهم فورًا. اتركوا الجثة!» وجهت الرجال الذين كانوا يحملون اللحم، ثم أضفت بلهجة آمرة: «اتبعوني!»

انطلقت مسرعًا نحو الميناء، وتبعني الآخرون دون تردد. ركضنا قرابة ميل كامل، ولم نسمع شيئًا من جهة الميناء، لكن التعب بدأ ينال منا، فقد كنا حبيسي الغواصة U-33 الضيقة لفترة طويلة. تباطأنا إلى المشي، ونحن نلهث من فرط الجهد. ومع اقترابنا من الميناء، وعلى بُعد ميل تقريبًا، واجهنا مشهدًا مذهلًا أوقفنا في أماكننا كأننا تماثيل جامدة. كنا نعبر غابة كثيفة أكثر من المعتاد في تلك المنطقة، وعندما خرجنا إلى مساحة مفتوحة في وسطها، وجدنا أنفسنا أمام حشد مهيب يزيد عن خمسمائة كائن، يشكلون مزيجًا من أنواع قريبة من البشر. رأيت قردة تشبه الإنسان وغوريلا يمكنني بسهولة التعرف عليها، لكن كان بينهم أشكال أخرى غريبة لم أشهدها من قبل. البعض يشبه الكائن الذي عثرنا على جثته قرب جدار البحر في كابرونا، بينما كانت هناك كائنات أدنى تطورًا، أقرب

إلى القردة في مظهرها. آخرون كانوا أشبه بالبشر، يقفون منتصبين بأجساد أقل شعرًا ورؤوس متطورة نسبيًا.

في وسط هذا الحشد، لفت نظري مخلوق واضح أنه قائدهم. كان يحمل شبهًا كبيرًا بما يُعرف بـ«إنسان نياندرتال» الذي تم اكتشافه في لا شابيل أو سانتس. جسده كان قصيرًا وممتلئًا، ورأسه الضخم منحني إلى الأمام، مدعومًا بظهر مقوس. ذراعاه كانتا أقصر من ساقيه، وساقاه السفليتان أقصر بكثير من البشر المعاصرين. كان هذا المخلوق، وواحد أو اثنان من رتبة أقل منه لكن أعلى من القردة، يحملون هراوات ثقيلة. أما البقية، فقد اعتمدوا على أجسادهم العضلية وأنيابهم الوحشية كأسلحة طبيعية. كانوا جميعًا ذكورًا، عراة تمامًا، لا يحملون أي زينة أو علامات مميزة على أجسادهم، حتى على رؤوسهم. وعندما وقعت أعينهم علينا، استداروا نحونا بصمت رهيب، وأنيابهم المكشوفة تصدر تهديدًا لا لبس فيه. أصدروا هديرًا منخفضًا ومخيفًا، كأن الطبيعة ذاتها قد قررت أن تحذرنا من التقدم أكثر.

لم أتمنَ يومًا أن أكون في مواجهة كهذه.

كانت النار بيننا، لكننا امتنعنا عن إشعالها إلا عند الضرورة القصوى. هكذا بدأت قيادة حزبي حولهم. ولكن في اللحظة التي فطن فيها الرجل البدائي إلى نواياي، بدا أنه ربطها بالجبن، فاندفع نحونا، صائحًا بجنون، وهو يلوح بهراوته فوق رأسه. تبعه الآخرون في الحال، وخلال لحظة واحدة كنا محاطين. أمرت بإطلاق النار، وفي الطلقة الأولى سقط ستة منهم، بينهم الرجل البدائي. تردد البقية

لحظة، ثم تفرّقوا نحو الأشجار، بعضهم يركض بخفة بين الفروع، فيما ضلّ آخرون طريقهم في محاولتهم للفرار. قررنا أن نأخذه معنا إلى المخيم، فتمكنا من تقييد يديه خلف ظهره وربط حبل حول عنقه قبل أن يستعيد وعيه. عدنا إلى حيث تركنا لحومنا، وكنت مقتنعًا من خلال تجربتنا الخاصة أن من كانوا على متن الغواصة U-33 قد تمكنوا من إخافة تلك المجموعة بقذيفة واحدة. لكن حين وصلنا إلى المكان الذي تركنا فيه الغزال، وجدنا أنه قد اختفى.

في رحلة العودة، تقدمت أنا ووايتلي عن باقي المجموعة بحوالى مئة ياردة، آملاً أن نصادف شيئًا صالحًا للأكل، فقد كنا جميعًا في غاية الإحباط بسبب فقدان لحوم الغزال. تقدمنا بحذر شديد، ومع غياب المجموعة كاملة، كانت حظوظنا أفضل مما كانت عليه في المرة الأولى، حيث اصطدنا اثنين من الظباء الكبيرة على بعد أقل من نصف ميل من الميناء. عدنا مع صيدنا وأسيرنا إلى الغواصة في معنويات مرتفعة، فوجدنا الجميع في أمان على الشاطئ، شمال موقعنا، كانت جثث عشرين من الكائنات البرية التي هاجمت برادلي ومجموعته في غيابنا، بينما تفرقت البقية التي قابلناها بعد دقائق. شعرنا أننا قد لقّنّا رجال القردة البرية درسًا قاسيًا، وأننا بفضل ذلك سنكون أكثر أمانًا في المستقبل، على الأقل منهم. ولكننا قررنا الاستمرار في الحذر الشديد، إذ كان لدينا شعور بأن هذا العالم الجديد يخبئ أهوالًا لم نكتشفها بعد، ولم نكن مخطئين في ذلك.

في اليوم التالي، بدأنا العمل على معسكرنا، حيث جلسنا أنا وبرادلي وأولسون وفون شينفورتس وآن لا رو طوال نصف الليل، نناقش الأمور ونضع الخطط. بدأنا في قطع الأشجار، واخترنا خشب

الجازا، وهو خشب صلب مقاوم للعوامل الجوية، وكان ينمو بكثرة في الجوار. عمل نصف الرجال، بينما كان النصف الآخر من الرجال في دورية، يتناوبون كل ساعة مع ساعة راحة في الظهيرة. وكان أولسون يشرف على هذا العمل. أما أنا وبرادلي وفون شينفورتس، بمساعدة آن لا رو، فقد بدأنا بتحديد مواقع المباني والسور الخارجي. وعندما انتهى اليوم، كان لدينا مجموعة من الأخشاب المشذبة جاهزة للعمل في اليوم التالي، وكان الإرهاق قد نال منا جميعًا. فقد شاركنا جميعًا في تقطيع الأشجار بعد تحديد المواقع، ما عدا فون شينفورتس، إذ لم يكن ليتحمل عملًا يدويًا أمام رجاله، كونه بروسيا ونبيلًا. ولم أكن لأطلب منه ذلك، إذ كان العمل تطوعيًا من جانبنا. قضى فترة ما بعد الظهر في تشكيل عصا من فرع الجازا، وكان يتحدث مع آن لا رو، التي بدأت تلاحظ وجوده بعدما انفتحت له قليلاً.

في اليوم التالي، لم نشهد أي وجود للرجال المتوحشين. فقط مرة واحدة تم تهديدنا من قبل أحدهم، وذلك عندما هاجمنا كابوس مخيف من السماء، فاندفع فوقنا، متبوعًا بوابل من الرصاص. بدا هذا الكائن بالنسبة لي كنوع من الزاحف المجنح، الذي كان بحجمه الضخم وجوانبه الشرسة مثيرًا للإعجاب. ومع ذلك، كان هناك حادث آخر، وهو بالنسبة لي، على الأقل، أكثر كرهًا بكثير من أي هجوم مفاجئ من مخلوق ما قبل التاريخ. كان اثنان من الرجال الألمان، قد نزعا ملابسهما، يقطعان شجرة من أغصانها. أكمل فون شينفورتس عصاه، بينما كنت أنا وهو نمر بالقرب منهما.

وألقى أحدهما غصنًا صغيرًا خلف فون شينفورتس، وكان من سوء

حظه أنه أصابه في وجهه، ولكن العصى لم يسبب له أي أذى. ومع ذلك، انفجر فون شينفورتس غاضبًا، صارخًا: «انتبه!» وبشكل فوري، وقف البحار في وضع الانتباه، وأدار وجهه نحو ضابطه، وركع على قدميه. فغضب البارون، ووجه ضربة على وجه الرجل، فكسر أنفه. تدخلت سريعًا وأمسكت بذراع فون شينفورتس قبل أن يضربه مرة أخرى، إذ كان يبدو أنه ينوي فعل ذلك. ثم رفع عصاه الصغيرة ليضربني، لكن قبل أن يضربني كانت فوهة مسدسي على بطنه. لابد أنه رأى في عيني أنني لا أبحث عن أي عذر للانسحاب، كان فون شينفورتس جبانًا في أعماقه، فأرخى يده جانبًا وبدأ في الابتعاد. لكنني سحبته إلى الوراء، وهناك أمام رجاله، أخبرته أن مثل هذا التصرف لا ينبغي أن يحدث مجددًا، وأنه لا يجوز ضرب أو معاقبة أي شخص إلا وفقًا للإجراءات القانونية التي وضعناها، والمحكمة التي أسسناها طوال الوقت، كان البحار واقفًا في وضع الانتباه، ولم أستطع تحديد ما إذا كان يشعر أكثر بالاستياء من الضربة التي تلقاها أم من تدخلي في شؤون الضباط. لم يتحرك حتى قلت له بليس، يمكنك العودة إلى مكانك وتضميد جرحك.» حينها استقام، وسار بصلابة نحو الغواصة يو-33.

قبل غروب الشمس بقليل، تحركنا إلى داخل الخليج، على بعد مائة ياردة من الشاطئ، وألقينا المرساة، إذ شعرت أننا سنكون أكثر أمانًا هناك من أي مكان آخر. عينت بعض الرجال للقيام بدوريات خلال الليل، وكلفت أولسون بمراقبة السطح طوال الليل، وأوصيته أن يأخذ بطانياته إلى الأعلى ويحصل على ما يستطيع من راحة. عند العشاء، تذوقنا أول لحم غزال كابرونا المشوي، وكان لدينا طبق من

الخضروات التي جمعها الطباخ من مجرى النهر. طوال الوجبة، ظل فون شينفورتس صامتًا وعابسًا.

بعد العشاء، صعدنا جميعًا إلى السطح لنشاهد مشهد الليل الكابروني الغريب، عدا فون شينفورتس. كان هناك أقل مما يمكن رؤيته مقارنة بما يمكن سماعه. من البحيرة الداخلية الكبيرة خلفنا، جاء صوت الهسيس والصراخ من عدد لا يحصى من الزواحف وفوقنا، سمعنا رفرفة الأجنحة العملاقة، بينما كانت أصوات الغابة الاستوائية ترتفع من الشاطئ، تتداخل معها أصداء العصور القديمة كالعصر الباليوزي والميزوزي. لكن هنا، كانت تتداخل أصوات العصور اللاحقة وهرير النمر، وزئير الأسد، وعواء الذئاب، وهدير عميق لم نتمكن من نسبه إلى أي كائن أرضي، لكننا سنربطه يومًا ما بأكثر الكائنات القديمة رعبًا.

واحدًا تلو الآخر، ذهب الآخرون إلى غرفهم، حتى بقيت أنا والفتاة معًا، لأنني سمحت للمراقب بالنزول لبضع دقائق، وأنا أعلم أنني سأبقى على السطح. كانت الآنسة لا رو هادئة جدًا، رغم أنها ردّت بلطف على كل ما كنت أقول. سألتها إذا كانت تشعر بشيء غير عادي. قالت: «نعم لكنني مكتئبة بسبب فظاعة الأمر كله. أشعر بأنني بلا قيمة، صغيرة وعاجزة في مواجهة هذه التجليات المتعددة للحياة التي أظهرت وحشيتها وبدائيتها. أدرك الآن، أكثر من أي وقت مضى، كم أن الحياة رخيصة وعديمة القيمة. الحياة تبدو وكأنها مزحة، مزحة قاسية ومروعة. أتت حادثة هزلية أو مرعبة، مهما كانت قوتك أو ضعفك، ستقفز من المهد إلى القبر. نعم، هذه هي مشكلتنا نحن نأخذ أنفسنا على محمل الجد بشكل مبالغ فيه؛ لكن كابرونا يجب أن

تكون علاجًا أكيدًا لذلك.» توقفت وضحكت.

قلت: «لقد طورتِ فلسفة جميلة، تملأ القلب البشري بالشوق. فلسفة كاملة، ومرضية، ومشرفة. كم كانت البشرية ستقطع أشواطًا عظيمة نحو الكمال لو أن أول إنسان قد تبناها واستمرت كعقيدة للبشرية حتى الآن.» قالت: «أنا لا أحب السخرية» لإنها تدل على روح صغيرة.»

سألتها: «أي نوع آخر من الأرواح تتوقعين إذًا من حادثة هزلية صغيرة تقفز من المهد إلى القبر؟ وما الفرق في النهاية بين ما تحبين وما لا تحبين؟ أنت هنا لحظة فقط، ويجب ألا تأخذي نفسك على محمل الجد.» نظرت إلي بابتسامة وقالت «أعتقد أنني خائفة وقلقة، وأعلم أنني أفتقد المنزل بشدة وأنا وحيدة جدًا.» كان في صوتها شيء من البكاء. انتهت محادثتنا وكانت تلك المرة هي أول مرة تتحدث فيها إليّ بهذه الطريقة. لا إراديًا، وضعت يدي على يدها حيث كانت مستندة على الدرابزين.

قلث لها: «أعلم كم هو صعب وضعكِ»، ثم تابعث، «لكن لا تشعري أنكِ وحدكِ. هنا من هو مستعد لفعل أي شيء في العالم من أجلكِ.» انتهت كلماتِي، ولكنها لم تسحب يدها، بل رفعت عينيها نحوي، والدموع تلمع على خديها، فقرأث في نظرتها الشكر الذي لم تستطع شفتاها التعبير عنه. ثم بعينيها ابتعدت إلى الأفق حيث المنظر الغريب الذي يضيئه ضوء القمر، وتنهدت. كان من الواضح أن فلسفتها الجديدة انهارت حول رأسها، فقد بدا أنها تأخذ نفسها على محمل الجد. تمنيث لو أضمها إليّ وأخبرها كم أنني أحبها، فانتزعث

يدها من الدرابزين وبدأت أسحبها نحوي، لكن أولسون ظهر فجأة وهو يتعثر وهو يحمل فراشه في طريقه إلى سطح السفينة.

في صباح اليوم التالي، بدأنا العمل الجاد في البناء، وتقدمت الأمور بشكل جيد. كان الرجل النياندرتالي مصدر قلقٍ لنا، إذ كان علينا أن نحبسه في الحديد طوال الوقت، فقد كان شديد الوحشية خاصة عندما نقترب منه؛ لكن بعد فترة أصبح أكثر انقيادًا، فحاولنا اكتشاف إذا ما كان لديه لغة. قضت الفتاة وقتًا طويلًا في التحدث إليه ومحاولة استخراجه، ولكنها فشلت في كل مرة. استغرقنا ثلاثة أسابيع لبناء جميع المنازل، التي شيدناها بالقرب من عين ماء باردة على بعد ميلين من الميناء.

غيرنا خططنا قليلًا عندما بدأنا في بناء الجدار المحصن، فقد وجدنا منحدرًا متعفنًا بالقرب منا حيث يمكننا الحصول على جميع الحجارة المسطحة التي نحتاجها، فقمنا ببناء جدار من الحجر حول المباني. كان الجدار على شكل مربع، مع عمل أبراج في كل زاوية تسمح بفتح نار مسلطة على أي جانب من الحصن، وكان طول الجدار من الخارج حوالي مئة وخمسة وثلاثين قدمًا، بارتفاع خمسة عشر قدمًا، وسمك الجدران ثلاثة أقدام في القاع، وبعرض قدم ونصف في القمة. استغرق بناء هذا الجدار وقتًا طويلًا، ساهمنا جميعًا في العمل باستثناء فون شونفورت، الذي لم يتحدث إليَ سوى في إطار الأعمال الرسمية منذ مواجهتنا الأخيرة، وهو وضع من الحياد المسلح الذي كان يناسبني تمامًا. انتهينا من البناء اليوم، حيث أضفنا اللمسات الأخيرة، ومنذ أسبوع تقريبًا توقفت عن العمل وبدأت في كتابة هذه السجلات حول مغامراتنا الغريبة، وهذا قد

يفسر بعض الأخطاء الطفيفة في التسلسل الزمني التي قد تكون تسللت في السطور؛ فكان هناك الكثير من الأحداث، ربما أخطأت في بعض التفاصيل، لكنني أعتقد أنها أخطاء طفيفة وقليلة.

أرى في مراجعة الصفحات الأخيرة أنني أغفلت ذكر أن ليس قد اكتشفت أخيرًا أن الرجل النياندرتالي يمتلك لغة. لقد تعلمت التحدث بها، وكذلك فعلت أنا إلى حد ما. وما عرفناه عنه هو اسمه كما يقول «آم» أو «أهم» - أخبرنا أن هذه البلاد تُسمى «كاسباك». وعندما سألناه عن مدى اتساعها، حرك ذراعيه فوق رأسه بحركة شاملة بدت وكأنها تشمل الكون بأسره. أصبح الآن أكثر انقيادًا، ونحن على وشك إطلاق سراحه، لأنه قد أكد لنا أنه لن يسمح لأقرانه بإيذائنا. إنه يطلق علينا اسم «غالوس» ويقول إنه في وقت قريب سيكون «غالُو». لا يزال المعنى غير واضح بالنسبة لنا. يقول إن هناك العديد من «غالوس» شمالنا، وأنه بمجرد أن يصبح واحدًا منهم، سيذهب ليعيش معهم.

خرج آم معنا للصيد أمس وكان مندهشًا للغاية من السهولة التي تمكنا بها من اصطياد الغزلان والظباء باستخدام بنادقنا. لقد عشنا على خيرات الأرض، حيث أرانا آم الفواكه والجذور والأعشاب الصالحة للأكل، وكنا نخرج مرتين في الأسبوع للحصول على اللحم الطازج. وقد جففنا بعضًا من هذا اللحم واحتفظنا به، لأننا لا نعلم ما قد يحدث. عملية التجفيف التي نقوم بها هي في الحقيقة تدخين. كما جففنا كمية كبيرة من نوعين من الحبوب التي تنمو بريًا على بعد بضع أميال جنوبنا. أحد هذه الأنواع هو الذرة الهندية العملاقة - نبات معمر طويل يصل ارتفاعه في بعض الأحيان إلى خمسين أو

ستين قدمًا، مع أكواز بحجم جسد الإنسان وحبوب بحجم قبضة اليد. وقد اضطررنا لبناء مستودع ثانٍ لتخزين الكمية الكبيرة التي جمعناها.

في الثالث من سبتمبر عام 1916: قبل ثلاثة أشهر من اليوم، أطلق الطوربيد من الغواصة U-33 في أعماق البحر سفينتي من سطح السفينة الأمريكية الهادئ، ليبدأ بذلك رحلتي الغريبة التي انتهت هنا في كاسبَاك. لقد استسلمنا للقدر الذي لاقيناه، لأننا جميعاً مقتنعون أن لا أحد منا سيرى العالم الخارجي مرة أخرى. لم تنجح تأكيدات آهم المتكررة بوجود بشر يشبهوننا في كاسبَاك إلا في إشعال رغبتنا في الاستكشاف. أرسلت فريقاً الأسبوع الماضي تحت قيادة «برادلي»، وكان آهم الذي أصبح حراً في التنقل كما يشاء، رافقهم. ساروا نحو الغرب لمدة خمسة وعشرين ميلاً، فواجهوا العديد من الوحوش والزواحف المروعة، وبعض الكائنات البشرية الشكل التي طردها «أهم». إليكم تقرير «برادلي» عن الحملة: سار الفريق خمسة عشر ميلاً في اليوم الأول، مخيماً على ضفاف مجرى مائي كبير يجري جنوباً. كانت الحياة البرية وفيرة، ورأينا عدة أنواع لم نكن قد صادفناها من قبل في كاسبَاك. وقبل أن نقيم معسكرنا، هاجمنا وحش وحيد قرن ضخم مغطى بالصوف، فتمكن بليسر من إسقاطه بتصويب دقيق. تناولنا شرائح اللحم من ذا القرن الوحيد على العشاء. أطلق آهم على الوحش اسم أطيس. كان اليوم الأول مليئاً بالقتال، ومنذ مغادرتنا المعسكر حتى وصولنا إلى المخيم كانت المعركة شبه مستمرة. العقل البشري يعجز عن تصور الكم الهائل من الكائنات المفترسة في هذا العالم المفقود؛ ووجباتهم بالطبع كانت

أكثر وفرة. في اليوم الثاني، سرنا حوالي عشرة أميال حتى سفح الجروف، وعبرنا غابات كثيفة بالقرب من قاعدة الجرف. شاهدنا كائنات بشرية الشكل وقردة من نوع متدنٍ في مجموعة واحدة، وأقسم بعض الرجال أنهم رأوا رجلاً أبيض بينهم. كانوا على وشك الهجوم علينا في البداية، لكن إطلاق النار من بنادقنا جعلهم يغيرون رأيهم. تسلقنا الجرف بأقصى ما نستطيع، لكن بالقرب من قمته كانت الجروف عمودية تماماً، دون أي شق أو نتوء يسمح لنا بالإمساك أو التسلق. شعر الجميع بالإحباط، فقد كنا نتوق لرؤية المحيط والعالم الخارجي. حتى كان لدينا أمل في أن نرى سفينة عابرة قد تلاحظنا. وقد خلص استكشافنا إلى شيء واحد قد لا يكون ذا قيمة لنا وقد لا يسمع به أحد خارج أسوار كابروانا، هذا الفوهة البركانية كانت مليئة بالماء في يوم من الأيام. الدليل القاطع على ذلك يوجد على جدران الجرف. استغرقنا يومين في العودة، وكانت الرحلة مليئة بالمغامرات كالمعتاد. نحن جميعاً نألف المغامرة الآن، وأصبحت في بعض الأحيان مملة. لم نواجه أي إصابات أو أمراض. لقد ابتسمت حين قرأت تقرير برادلي. في تلك الأيام الأربعة، مرّ بلا شك بمغامرات أكثر مما قد يواجهه صياد ألعاب أفريقي طوال حياته، ومع ذلك فقد تناولها في سطور قليلة. نعم، نحن نألف المغامرة الآن. لا يمر يوم دون أن يواجه أحدنا الموت مرة واحدة على الأقل. علمنا آهم بعض الأمور التي كانت مفيدة، وأنقذت منا الكثير من الذخيرة التي لم تعد تنفق إلا على الطعام أو في آخر ملجأ للدفاع عن النفس. الآن عندما تهاجمنا الزواحف الطائرة الكبيرة، نركض تحت الأشجار المنتشرة؛ وعندما تهددنا الحيوانات المفترسة الأرضية، نصعد

الأشجار، وقد تعلمنا ألا نطلق النار على الديناصورات إلا إذا استطعنا البقاء بعيدين عن متناولها لمدة دقيقتين على الأقل بعد إصابتها في الدماغ أو العمود الفقري، أو لمدة خمس دقائق بعد اختراق قلبها فموتها يستغرق وقتاً طويلاً. أما إصابتها في أماكن أخرى، فلا جدوى منها، لأنها لا تبدو أنها تلاحظها، وقد اكتشفنا أن تلك الطلقات لا تقتلها ولا حتى تعطلها. في السابع من سبتمبر 1916: لقد حدث الكثير منذ آخر مرة كتبت فيها. برادلي في رحلة استكشافية أخرى إلى الجروف. يتوقع أن يغيب عدة أسابيع في متابعة القاعدة بحثاً عن نقطة يمكن تسلقها. أخذ معه سينكلير وبرادي وجيمس وتيبت. اختفى آهم. لقد غاب منذ ثلاثة أيام؛ لكن أروع ما في الأمر أن فون شينفورتس وأولسون بينما كانا يصطادان في اليوم الآخر اكتشفا النفط على بعد خمسة عشر ميلاً شمالاً منا، خلف جروف الرمل الحجري. يقول أولسون»..

«يوجد ينبوع من النفط هناك، وفون شينفورتس يشرع في إعدادات لتكريره وإذا نجح في مسعاه، فسوف نمتلك الوسيلة لمغادرة كاسبّاك والعودة إلى عالمنا. يكاد يكون من الصعب تصديق حقيقة ذلك. نحن جميعاً في قمة من السعادة لا توصف. نسأل الله أن لا يخيب رجاؤنا. لقد حاولت عدة مرات أن أتطرق إلى موضوع حبي لـ «ليز»، لكنها ترفض الاستماع.

الفصل السابع

8 أكتوبر 1916: هذه هي آخر تسجيلاتٍ سأدونها في مخطوطتي. عندما أنتهي من كتابتها، سأكون قد أكملت مهمتي. رغم أنني قد أصلي أن تصل إلى أماكن البشر المتحضرين، إلا أنني أعلم في أعماق نفسي أن هذه الكلمات لن تُقرأ بعين غير عيني، وحتى وإن حدث ذلك، سيكون قد فات الأوان لتحقيق أي فائدة لي. أنا الآن وحدي على قمة الجرف العظيم الذي يطل على المحيط الهادئ الواسع. يعض الرياح الجنوبية الباردة عظامي، بينما يمكنني من مكاني أن أرى أدغال كاسبَاك الاستوائية على جهة، وجبال الجليد الضخمة من القارة القطبية الجنوبية على الجهة الأخرى. قريباً، سأضع مخطوطتي المطوية في زجاجة الحرارية التي حملتها معي لهذا الغرض منذ مغادرتنا للقلعة التي سميّناها «قلعة الديناصور» وألقيها بعيداً في المحيط فوق الجرف. أي تيار يغسل شواطئ كابروانا، لا أعرف؛ وأين ستذهب زجاجتي، لا أستطيع حتى أن أخمّن. لكنني فعلت كل ما بوسعي، وكل ما يمكن لأي بشر فعله، لإعلام العالم بمكاني والمخاطر التي تهدد من بقوا على قيد الحياة في كاسبَاك إن كان هناك من يعيش غيري. في حوالي الثامن من سبتمبر، رافقت أولسون وفون شينفورتس إلى ينبوع النفط. جاءت ليس معنا، وأخذنا عدداً من الأدوات التي كان فون شينفورتس يحتاجها لبناء مصفاة بدائية. سافرنا على طول الساحل مسافة عشرة أو اثني عشر ميلاً على متن الغواصة U-33، ثم ربطناها على الشاطئ بالقرب من مصب مجرى مائي صغير يصب كميات كبيرة من النفط الخام في البحر الذي أجد صعوبة في تسميته بالبحيرة الكبيرة. ثم نزلنا وذهبنا

إلى الداخل حوالي خمسة أميال، حيث وصلنا إلى بحيرة صغيرة مملوءة تماماً بالنفط، ومن وسطها كان ينبثق منها ينابيع من النفط. على حافة البحيرة، ساعدنا «فون شينفورتس» في بناء مصفاته البدائية. عملنا معه لمدة يومين حتى بدأ الأمور تتسير على نحو جيد، ثم عدنا إلى «قلعة الديناصور»، خشية أن يعود برادلي ويشعر بالقلق بسبب غيابنا. رست الغواصة U-33 على الشاطئ لتركنا، ثم عادت في مسارها إلى بئر النفط. نزل أولسون ووايتلي وويلسون وآنسة لا رو وأنا، بينما عاد فون شينفورتس وطاقمه الألماني لتكرير النفط. في اليوم التالي، جاء بليسر واثنان من الألمان الآخرين عبر البر للحصول على ذخيرة. قال بليسر تعرضوا لهجوم من قبل رجال برابرة، وأنهم استهلكوا الكثير من الذخيرة. كما طلب إذناً للحصول على بعض اللحم المجفف والذرة، قائلاً إنهم كانوا مشغولين جداً بتكرير النفط لدرجة أنهم لم يجدوا وقتاً للصيد. سمحت له بكل ما طلبه، ولم يخطر في بالي قط أي شكوك حول نواياهم. عادوا إلى بئر النفط في نفس اليوم، بينما واصلنا نحن مشاغلنا في الحياة اليومية في المعسكر. لم يحدث شيء مهم لمدة ثلاثة أيام. لم يعد «برادلي»؛ ولم نتلق أي خبر من «فون شينفورتس». في المساء، صعدت «ليز» وأنا إلى إحدى أبراج المعسكر، واستمعنا إلى أصوات الحياة الليلية المظلمة والمرعبة لعصور ما قبل التاريخ. وفي لحظة، صرخ أحد السيوف في أسفلنا تقريباً، فتقلصت «ليز» بجانبي. وعندما شعرت بجسدها قرب جسدي، تحطمت كل قيود الحب المكتوم في صدري على مدى الأشهر الثلاثة الماضية، فاستجمعت شجاعتي ورفعتها بين ذراعي، وطوّقت وجهها وشفتيها بالقبلات. لم تقاوم لتحرر

نفسها؛ بل على العكس، أطبقت ذراعيها الحبيبتين حول عنقي، وسحبت وجهي ليصبح أقرب إلى وجهها.

«أتحبني، ليز؟» صرخت.شعرت برأسها تهز بالإيجاب على صدري. «قولي لي، ليز»، توسلت، «قولي لي بكلمات كيف تحبينني.»جاء الرد خافتاً حلوًا رقيقًا: «أحبك فوق كل تصور»

قلبي امتلأ بالنشوة حينها، ولا يزال يمتلئ الآن كما كان يمتلئ في كل مرة لا تعد ولا تحصى عندما استرجعت تلك الكلمات العزيزة، كما سيظل يمتلئ دائمًا حتى يحين موعد موتي. قد لا أراها مجددًا؛ قد لا تعرف مدى حبي لها-قد تشك، قد تدور في رأسها أسئلة، قد تساورها الشكوك؛ لكن دائمًا وبصدق، ثابتًا ودافئًا بنيران الحب، ينبض قلبي من أجل الفتاة التي قالت في تلك الليلة: «أحبك أكثر مما تتصور».

جلسنا طويلًا على المقعد الصغير الذي تم بناءه للحارس، والذي لم نكن قد رأينا ضرورة وضعه في أكثر من برج واحد من الأبراج الأربعة. تعلمنا أن نعرف بعضنا البعض بشكل أفضل في تلك الساعتين القصيرتين أكثر مما عرفنا خلال الأشهر التي مرت منذ أن جمعنا القدر معًا. أخبرتني بأنها أحبتني من البداية، وأنها لم تحب فون شينفورتس، وأن خطبتهما كانت قد رتبها عمتها لأسباب اجتماعية.

كانت تلك أسعد مساء في حياتي؛ ولا أتوقع أبدًا أن أعيش مثله؛ ولكن كما هي حال السعادة، انتهت في النهاية. نزلنا إلى الساحة، وسرت مع ليس حتى باب غرفتها. هناك قبلتني وقالت لي تصبح

على خير، ثم دخلت وأغلقت الباب ذهبت إلى غرفتي، وجلست هناك تحت ضوء إحدى الشموع البدائية التي صنعناها من شحم الحيوانات التي قتلناها، وأعدت أحداث تلك الأمسية في ذهني. وفي النهاية استلقيت على سريري وسقطت في نوم عميق، أحلم بأحلام سعيدة وأخطط للمستقبل، فحتى في كاسبك المتوحش كنت مصممًا على جعل فتاتي آمنة وسعيدة. كان قد حل النهار عندما استيقظت.

كان ويلسون، الذي كان يعمل كطباخ، قد استيقظ وأخذ يتحرك في مهام عمله في مطبخ المعسكر. الآخرون كانوا نائمين؛ ولكنني نهضت وخرجت مع «نوبس» إلى النهر للسباحة. وكما كان عادتنا، كنت مسلحًا بكل من البندقية والمسدس؛ ولكنني خلعت ثيابي وسبحت دون أي إزعاج سوى اقتراب ضبع كبير، وكان هناك عدد من هذه الحيوانات قد استوطنت في الكهوف الموجودة في منحدرات الرمال الشمالية للمخيم. هذه الوحوش ضخمة وعنيفة للغاية. أعتقد أنها تشبه الضبع الكهفي من العصور ما قبل التاريخ. هذا الوحش هاجم «نوبس»، الذي علمته تجاربه في كابرانيا أن الحكمة في التفادي هي الأفضل، فغطس مباشرة في النهر بجانبي بعد أن أطلق سلسلة من الزئير العنيفة التي لم تؤثر على آهم أكثر من تأثير ابتسامة لطيفة على فيل غاضب. بعد ذلك أطلقت النار على الوحش، واحتفل نوبس بتناول وجبته بينما كنت أرتدي ثيابي، فقد أصبح يأكل اللحم النيء بكثرة خلال رحلات الصيد التي خضناها، حيث كنا نمنحه جزءًا من الفريسة في كل مرة.

كان وايتلي وأولسون قد استيقظا وارتديا ملابسهما عندما عدنا،

وجلسنا جميعًا لتناول إفطار جيد. لم أستطع إلا أن أتساءل عن غياب ليس عن الطاولة، فقد كانت دائمًا من أوائل من يستيقظون في المخيم؛ لذا، حوالي الساعة التاسعة، وبدأت أشعر بالقلق خشية أن تكون غير قادرة على النهوض، ذهبت إلى باب غرفتها وطرقت. لم أتلقَ أي رد، رغم أنني طرقت الباب بكل قوتي؛ ثم مددت يدي إلى المقبض ودخلت، فقط لأكتشف أنها لم تكن هناك. كانت سريرها قد تم استخدامه، وملابسها كانت حيث وضعتها ليلة أمس قبل أن تخلد إلى النوم؛ لكن ليس قد اختفت. القول إنني كنت مضطربًا بالفزع سيكون تبسيطًا للموقف. ورغم أنني كنت أعلم أنها لا يمكن أن تكون في المعسكر، إلا أنني فتشت كل شبر في الساحة وجميع المباني، ولكن دون جدوى.

وايتلي هو من اكتشف أول دليل وقد كان أثر قدم ضخم يشبه قدم الإنسان في التربة الرخوة بجانب الينبوع، ووجود علامات صراع في الوحل. ثم عثرت على منديل صغير بالقرب من الجدار الخارجي. لقد تم اختطاف ليس! كان كل شيء واضحا للغاية. أحد أفراد قبيلة رجال القردة المتوحشة قد دخل الحصن واختطفها. بينما كنت واقفًا مذهولًا ومرعوبًا أمام الدليل الفظيع الذي أمامي، بدأ يأتي من اتجاه البحيرة الكبيرة صوت متصاعد يزداد حتى أصبح شبيهًا بالصراخ. نظرنا جميعًا إلى الأعلى بينما كان الصوت يقترب وكأن مصدره فوقنا مباشرة، وبعد لحظة... تبع ذلك انفجار هائل ألقى بنا على الأرض. عندما نهضنا، رأينا جزءًا كبيرًا من الجدار الغربي قد تم تمزيقه وتحطيمه. كان أولسون هو من تعافى أولاً من صدمته بشكل كافٍ ليخمن تفسير هذه الظاهرة.

صرخ: «قذيفة! لا يوجد قذائف في كاسبك غير التي على الغواصة-33 U هؤلاء الأوغاد يقصفون الحصن. هيا بنا!» وأمسك ببندقيته وركض باتجاه البحيرة. كانت المسافة تزيد عن ميلين، لكننا لم نتوقف حتى أصبح الميناء في مرمى النظر، ومع ذلك لم نتمكن من رؤية البحيرة بسبب المنحدرات الرملية التي كانت تعترض طريقنا. ركضنا بأسرع ما يمكننا حول الطرف السفلي للميناء، تسلقنا المنحدرات، وأخيرًا وقفنا على قمتها لنرى البحيرة أمامنا. بعيدًا على طول الساحل، نحو النهر الذي مررنا منه للوصول إلى البحيرة، رأينا على سطح الماء شكل الـ U-33، والدخان الأسود يتصاعد من مدخنتها.

لقد تمكن فون شينفورتس من تنقية النفط! لقد خالف كل وعوده وتركنا هناك لنواجه مصيرنا. حتى أنه قصف الحصن كهدية وداع؛ ولم يكن هناك شيء يمكن أن يكون أكثر بروسية من هذه الطريقة التي ودعنا بها البارون فريدريش فون شينفورتس. وقف أولسون، ووايتلي، وويلسون، وأنا للحظة نتبادل النظرات. بدا من غير المعقول أن يكون الإنسان خائنًا إلى هذه الدرجة أننا حقًا رأينا بأعيننا ما رأيناه؛ ولكن عندما عدنا إلى الحصن، قدم الجدار المدمر دليلًا قاطعًا على أنه لم يكن هناك أي خطأ.

ثم بدأنا نفكر في ما إذا كان الذي اختطف ليس هو أحد رجال القردة أو بروسيا. من خلال معرفتنا بفون شينفورتس، لم نكن لنتفاجأ بأي تصرف يصدر عنه؛ ولكن الآثار التي وجدناها بجانب الينبوع كانت دليلًا لا يقبل الجدل على أن أحد رجال كابرونا البدائيين قد اختطف الفتاة التي أحببتها. بمجرد أن تأكدت من

أن هذا هو الحال، بدأت في تجهيز نفسي للمتابعة وإنقاذها. أراد أولسون، ووايتلي، وويلسون أن يرافقوني؛ لكنني أخبرتهم أنهم بحاجة للبقاء هنا، لأنه مع غياب فرقة برادلي ومع مغادرة الألمان، كان من الضروري أن نحافظ على قوتنا قدر الإمكان.

الفصل الثامن

كان وداعاً حزيناً، حيث صافحت كل واحد من الرجال الثلاثة المتبقين بصمت. حتى الفقير نوبس بدا حزيناً ونحن نغادر المجمع وننطلق على أثر الخاطف. لم ألتفت بنظري مرة واحدة نحو حصن الديناصور. ولم أنظر إليه منذ ذلك الحين وربما لن أنظر إليه مجددًا في المستقبل. قادنا الأثر نحو الشمال الغربي حتى وصل إلى الطرف الغربي من المنحدرات الرملية التي تقع شمال الحصن؛ وهناك التقى بمسار واضح كان يلتوي شمالًا إلى أرض لم نكن قد استكشفناها بعد. كانت منطقة جميلة ومتموجة بلطف، مكسوة أحيانًا بتشكيلات من الحجر الرملي، وبينها بقع من الغابات الكثيفة التي يفصل بينها امتدادات مفتوحة مثل المنتزهات والمروج الواسعة التي كانت ترعى فيها حيوانات العواشب بعدد لا يحصى الغزلان الحمراء، والبقر الوحشي، وأنواع لا تعد ولا تحصى من الظباء، وأقلها ثلاث أنواع مميزة من الخيول، تراوحت في حجمها من كائن بحجم نوبس إلى حيوان رائع طوله من أربعة عشر إلى ستة عشر يدًا. كانت هذه الكائنات ترعى معًا في تناغم تام؛ ولم تُظهر أي علامات كبيرة من الخوف عندما اقتربنا أنا ونوبس. تحركت لتبتعد عن طريقنا وظلت تراقبنا حتى مررنا، ثم استأنفت رعيها. قادنا المسار مباشرة عبر الفضاء المفتوح إلى غابة أخرى، وعند حافة هذه الغابة رأيت قطعة من اللون الأبيض. بدت هذه القطعة تبرز بشكل لافت ومتناقض مع محيطها، وعندما توقفت لفحصها، اكتشفت أنها شريط صغير من الموسلين، إنه جزء من حافة ملابس. في تلك اللحظة، شعرت بحماسة كبيرة، لأنني علمت أنها علامة تركتها ليس بأنها قد

أُخذت بهذا الطريق؛ كانت قطعة صغيرة ممزقة من حافة الملابس الداخلية التي كانت ترتديها بدلًا من ملابس النوم التي فقدتها مع غرق السفينة. وعندما ضممت قطعة القماش إلى شفتي، أسرعت في المسير أكثر من قبل، لأنني الآن علمت أنني على الطريق الصحيح وأنه على الأقل حتى هذه النقطة، كانت ليس لا تزال على قيد الحياة حتى تلك اللحظة.

سافرتُ أكثر من عشرين ميلًا في ذلك اليوم، وأصبح جسدي قادرًا على تحمل الإرهاق، معتادًا على المشي لمسافات طويلة، فقد قضيت وقتًا طويلاً في الصيد والاستكشاف حول المخيم. وكانت حياتي مهددة عشرات المرات على يد مخلوقات مرعبة، سواء على الأرض أو في السماء. لكنني لاحظت أنه كلما تقدمت شمالًا، قلّ عدد الديناصورات الضخمة، رغم أن بعضها كان لا يزال يظهر بأعداد أقل. في المقابل، تزايدت أعداد الحيوانات المجترة وتنوعت الحيوانات المفترسة، وكنت أراها بشكل متكرر. كان كل ميل مربع من «كاسباك» يحمل معه مخاطر خاصة.

خلال الطريق، عثرت على قطع من القماش بين الحين والآخر، مما كان يطمئنني عندما كنت أتردد في الاختيار بين المسارات المتشابكة عند التقاطعات أو المفترقات. ومع اقتراب الليل، وصلت إلى نهاية سلسلة من المنحدرات الشاهقة التي لم أر مثلها من قبل. وعندما اقتربت منها، فاحت في أنفي رائحة دخان الخشب. لم يكن هناك سوى تفسير واحد في ذهني: بشر يسكنون هنا، ربما نوع أعلى من البشر مما رأينا حتى الآن، باستثناء «آهم»، رجل النياندرتال. وتساءلت مرة أخرى، كما فعلت طوال اليوم، إذا كان «آهم» هو من

اختطف ليس.

تقدمت بحذر على حافة المنحدرات، حيث انتهت بشريط صخري شديد الانحدار، كما لو أن يدًا قوية قد قطعت جزءًا من الجبل ووضعته على سطح الأرض. وقد حل الظلام تمامًا، وعندما تسللت حول الحافة، رأيت على مسافة قريبة نارًا عظيمة تحيط بها عدة أشكال بشرية. كان بإمكاني أن أرى بوضوح من وراء الشجيرات المخلوقات التي تحيط بالنار. كانوا بشرًا، لكن ليس بالكامل. يمكنني القول أنهم كانوا في مرتبة أعلى قليلًا من آهم، ربما يشغلون موقعًا تطوريًا بين إنسان النياندرتال وسلالة غريمالدي. كانت ملامحهم زنجانية بوضوح، لكن جلودهم كانت بيضاء. كان الشعر القصير يغطي أجزاء كبيرة من أجسامهم وأطرافهم، وكانت بنيتهم الجسدية تشبه القردة في العديد من النواحي، وإن لم تكن بنفس الحجم الذي كان عليه آهم. كانوا يتحركون بوضعية أكثر استقامة، على الرغم من أن أذرعهم كانت أطول بكثير من تلك التي يمتلكها إنسان النياندرتال.

وبينما كنت أراقبهم، لاحظت أنهم يمتلكون لغة خاصة بهم، ويعرفون كيفية استخدام النار، ويحملون، بالإضافة إلى الهراوة الخشبية التي كان يحملها آهم، شيئًا يشبه الفأس الحجرية البدائية. كان واضحًا أنهم في مرتبة متدنية من الإنسانية، لكنهم كانوا خطوة تطورية متقدمة عن أولئك الذين رأيتهم في كاسباك. لكن أكثر ما لفت انتباهي كان رؤية فتاة نحيلة، أنيقة، ترتدي قطعة من القماش ممزقة ومتآكلة عند حوافها بالكاد تغطي ركبتيها، كانت ليس، وكانت على قيد الحياة، وبقدر ما استطعت رؤيته، لم تتعرض لأي أذى.

وقف بجانبها كائن ضخم ذو شفاه سميكة وفك بارز، يتحدث بصوت عالٍ.

كان تسا، هذا الكائن، يشير بيديه بحماس، قريبًا بما يكفي لأسمع كلماته، التي بدت شبيهة بلغة آهم، لكنها كانت أكثر تعقيدًا، حيث تداخلت فيها العديد من الكلمات التي لم أفهمها. ومع ذلك، استطعت أن ألتقط جوهر حديثه: لقد أسرّها وأعلن أنها ملكه، متحديًا أي شخص يشكك في حقه في امتلاكها. بدا لي، كما اكتشفت لاحقًا، أنني كنت أُشاهد واحدة من أكثر طقوس الزواج بدائية. كان أفراد القبيلة الجالسون يستمعون إليه بنظرات باردة، وكأنهم غير مبالين، فهم يعرفون أن المتحدث هو أقوى أفرادهم بلا منازع. لم يكن هناك من يجرؤ على معارضته عندما صرخ بصوت عالٍ قائلاً: «أنا تسا. هذه لي. من يريدها أكثر من تسا؟»

أجبته بلغة آهم: «أنا أريدها»، وتقدمت نحوهم في ضوء النار. اندفعت «ليس» نحوي، معلنة عن فرحها بصوت عالٍ، لكنها توقفت عندما أمسك «تسا» بذراعها وجذبها بعيدًا.

صرخ تسا بعنف: «من أنت؟ سأقتلك، سأقتلك، سأقتلك.»

أجبته بكل حزم: «هذه المرأة لي، جئت لأستردها. سأقتلك إذا لم تدعها تأتي معي.» رفعت مسدسي نحو قلبه، وكان واضحًا أنه لم يكن يعرف ماهية هذا الشيء الغريب الذي أشهرته نحوه. ومع صوته الذي كان نصفه بشريًا والنصف الآخر يشبه هدير الوحوش، اندفع نحوي بكل وحشية. صوبت مسدسي نحو قلبه وأطلقت النار، وعندما سقط ممددًا على الأرض، تفرق بقية أفراد قبيلته مذعورين

باتجاه المنحدرات. أما ليس، فقد ركضت نحوي بذراعين ممدودتين، وألقت نفسها في أحضاني.

لكن، كما هو الحال دائمًا في هذا العالم المظلم، سرعان ما تبعنا ظلال الليل. من خلفنا ومن الجانبين، اندلعت سلسلة من الصرخات الوحشية، والهمسات المخيفة، والهدير والزئير المروع. كانت تلك هي حياة الليل في هذا العالم الغابي: الوحوش الليلية الضخمة آكلة اللحوم التي تجعل ليالي كاسباك كوابيس لا تنتهي. ارتجف جسد ليس، وخرجت منها شهقة مرتعشة، ثم صرخت قائلة: «يا إلهي، امنحني القوة لأتحمل، من أجله!» كانت على وشك الانهيار، مرهقة من كل ما مرت به من خوف ورعب، فحاولت تهدئتها، أطمئنها بكل ما أستطيع. لكن، حتى بالنسبة لي، كان المستقبل يبدو غارقًا في الظلام؛ ما هي فرصتنا في النجاة أمام صيادي الليل الذين يقتربون منا الآن؟

ثم استدرت لألقي نظرة على مصير القبيلة، وفي ضوء النار المتقطع، رأيت وجه الجرف وقد امتلأ بحفر عميقة، تتسلقها تلك المخلوقات البشرية كظلال تندفع في الظلام. همست لـ ليس: «تعالي، يجب أن نتبعهم. لن نتمكن من الصمود هنا أكثر من نصف ساعة. يجب أن نجد كهفًا.» في تلك اللحظة، كانت العيون الخضراء اللامعة للحيوانات المفترسة تراقبنا من بين الظلال. أمسكت بعصا مشتعلة وألقيتها في الظلام، فعادت إلينا أصوات الاحتجاجات الوحشية والغاضبة، لكن العيون اختفت للحظة. اخترنا غصنًا مشتعلاً لكل واحد منا، واتجهنا نحو الجروف حيث قابلتنا تهديدات غاضبة.

«سيقتلوننا,» قالت ليس بصوت مرتجف.

أجبت: «من الأفضل أن نواصل البحث عن مأوى آخر.»

قلت مؤكدا: «لن يقتلونا كما سيفعل الآخرون هناك, سأبحث عن مأوى في أحد هذه الكهوف. لن يمنعنا البشر.» وتابعت السير نحو قاعدة الجرف، حيث كان هناك مخلوق ضخم يقف على الحافة، يهز فأسه الحجرية بعنف.

«تعالوا وسأقتلكم وآخذ الأنثى,» تبجح ذلك الكائن.

أجبت بلغته الخاصة: «هل رأيت الحال الذي تردى له تسا حين حاول أن يحتفظ بأنثاي. هكذا سيكون مصيرك أنت وجميع رفاقك إذا لم تسمحوا لنا بالمرور بسلام بعيدًا عن مخاطر الليل.»

صرخ: «اذهبوا إلى الشمال, اذهبوا إلى الشمال بين الجالوس، لن نؤذيكم. سنصبح جالوسًا في يوم من الأيام؛ لكننا الآن لسنا كذلك. أنتم لا تنتمون إلينا. ابتعدوا أو نقتلكم. يمكن للأنثى أن تبقى إذا كانت خائفة، وسنحتفظ بها؛ لكن الذكر يجب أن يرحل.»

«الذكر لن يرحل,» أجبت بثبات، واقتربت أكثر. كانت هناك حواف خشنة وضيقة شكلتها الطبيعة تؤدي إلى الكهوف العليا. ربما كان بإمكان الرجل تسلقها إذا كان خفيف الحركة، لكن تسلقها في مواجهة قبيلة معادية من نصف بشر ومع فتاة على الأرجح سيكون أمرًا يفوق قدرتي.

صرخ المخلوق متحديًا: «أنا لا أخاف منك, لقد قتلت تسا لأنك كنت قريبًا منه، لكنني أعلى منك بكثير. لا يمكنك إيذائي كما آذيت

تسا. اذهب بعيدًا!» وضع قدميه على الحافة السفلى وبدأ يتسلق للأعلى، ثم مددت يدي وسحبت «ليس» إلى جانبي. شعرت بشيء من الأمان. قريبًا سنكون بعيدين عن خطر الوحوش التي تقترب منا مجددًا. رفع الرجل الذي صبح فوقنا فأسه الحجرية عالياً فوق رأسه، وقفز بخفة ليواجهنا. كان موقعه يتيح له ميزة واضحة، أو هكذا ظن، حيث جاء بكل مظاهر الثقة. كرهت أن أفعل ذلك، لكن لم يكن أمامي خيار آخر، فتصرفت كما فعلت مع تسا قبله. رميته بيدي، فألقيته بعيدًا. «هل ترون؟» صرخت إلى رفاقه، «أنني أستطيع قتلكم أينما كنتم. من بعيد كما من قريب، أستطيع إنهاء حياتكم. دعونا نأتي إليكم بسلام. لن أؤذيكم إن لم تؤذونا. سنأخذ كهفًا عالياً. تحدثوا!»

قال أحدهم أخيرًا: «تعالوا إذن، إن لم تؤذونا، يمكنكم المجيء. خذوا حفرة تسا التي فوقكم.» أرانا المخلوق فم الكهف الأسود، لكنه ظل بعيدًا أثناء ذلك، فتبعته ليس وأنا أزحف للاستكشاف. كان لدي عود ثقاب، وفي ضوء أحدهم اكتشفت كهفًا صغيرًا، ذو سقف وأرض مسطحة تتبع انقسام الطبقات. كانت قطع من السقف قد سقطت منذ زمن بعيد، كما دلّ على ذلك عمق الأوساخ المتراكمة. أرانا المخلوق فم الكهف الأسود، لكنه أبقى على مسافة، ملاحظًا إياه عن كثب. تبعته ليس وأنا أزحف داخل الكهف للاستكشاف. كان في حوزتي عود ثقاب، وفي ضوءه لاحظت كهفًا صغيرًا ذو سقف مسطح وأرض مستقيمة تتبع انقسام الطبقات. كانت قطع من السقف قد سقطت في زمن بعيد، كما دل على ذلك عمق الأوساخ والحطام المتراكم في الزوايا. وحتى مع الفحص السطحي، كان واضحًا أن الكهف لم يشهد

أي محاولة لتحسين قابليته للسكن؛ ولا أظن أنه قد تم تنظيفه قط. بصعوبة شديدة، قمت بفك بعض قطع الصخور الكبيرة التي كانت متناثرة على الأرض، ثم وضعتها كحاجز أمام المدخل. كان الظلام يحول دون أن أتمكن من فعل أكثر من ذلك. ثم قدمت لـ ليس قطعة من اللحم المجفف، وجلسنا في مدخل الكهف نتناول طعامنا، كما فعل أسلافنا في فجر البشرية، بينما كانت أصوات الليل الوحشي ترتفع بعيدًا في الأسفل، غريبة ومرعبة لآذاننا. وفي ضوء النار الذي ظل مشتعلاً، كانت أشكال ضخمة تختبئ في الظلال، وفي الخلفية الأكثر سوادًا كانت عيون متوهجة لا تُحصى.

ارتجفت ليس، فوضعت ذراعي حولها وجذبتها إلي؛ وهكذا جلسنا طوال الليل الحار. أخبرتني عن اختطافها والمحنة التي مرت بها، وشكرنا الله معًا على سلامتها، لأن الوحش الكبير لم يجرؤ على التوقف في الطريق المليء بالمخاطر. قالت إنها لم تصل إلى المنحدرات إلا عندما وصلت أنا، لأن خاطفها كان قد اضطر في عدة مناسبات إلى اللجوء إلى الأشجار معها للهروب من قبضة بعض أسود الكهوف الجائعة أو النمور ذات الأنياب السابرية. وقالت إنهم اضطروا مرتين للبقاء لفترات طويلة قبل أن يبتعد الوحوش.

كان نوبس، بعد الكثير من الزحف والهروب العجيب من الموت، قد تمكن من ملاحقتنا إلى المنحدر، وهو الآن مستلقي بيني وبين المدخل، بعد أن تناول قطعة من اللحم المجفف، الذي بدا أنه يستمتع به بشدة. كان هو أول من نام، لكنني تخيلت أننا جميعًا سنموت قريبًا، إذ كنا في حالة من الإرهاق الشديد. تركت حزام الذخيرة والبندقية جانبًا، رغم أنهما كانا قريبين مني، لكنني أبقيت مسدسي

في حضني تحت يدي. ومع ذلك، لم نتعرض لأي إزعاج طوال الليل، وعندما استيقظت، كانت الشمس تشرق على قمم الأشجار في الأفق. كان رأس ليس قد انحنى على صدري، وذراعي لا تزال حولها.

بعد لحظات، استيقظت ليس، وللحظة بدا أنها لم تستطع فهم وضعها. نظرت إليّ، ثم التفتت ونظرت إلى ذراعي حولها، ثم بدا وكأنها أدركت فجأة قلة ملابسها، فتراجعت بسرعة، مغطية وجهها بكفيها، وقد احمرّت خجلاً. جذبتها إليّ، وقبلتها بحنان، ثم رمت ذراعيها حول عنقي وبكت بهدوء، في استسلام صامت للمصير الذي لا مفر منه. مرّت ساعة كاملة قبل أن يبدأ أفراد القبيلة في التحرك. راقبناهم من «شقتنا»، كما أسمتها ليس. لم يكن الرجال والنساء يرتدون أي نوع من الملابس أو الزينة، وكانوا جميعًا في سن متقاربة، فلم يكن بينهم أطفال أو شيوخ. كان هذا من أغرب الأمور التي لاحظناها، ما جعلنا ندرك أننا، رغم رؤيتنا للعديد من البشر البرّيين الأقل تطورًا في كاسبك، لم نرَ بعد طفلًا أو امرأة مسنّة.

بعد فترة، بدأ هؤلاء الناس يقللون من شكوكهم تجاهنا، ثم أصبحوا يتصرفون بطريقة ودية، لكنها خشنة. كانوا يعبثون بنسيج ملابسنا، مما بدا أنه يثير فضولهم، ويفحصون بندقيتي ومسدسي والذخيرة في الحزام حول خصري. عرضت عليهم زجاجة الماء الحراري، وعندما سكبت قليلاً من الماء منها، أبدوا سعادة غامرة، معتقدين أنها نبع يحمل معي ومصدر مياه لا ينضب.

لاحظنا شيئًا آخر غريبًا فيهم: أنهم لم يضحكوا أو يبتسموا أبدًا. ثم تذكرنا أن آهم لم يفعل ذلك أيضًا. سألناهم إذا كانوا يعرفون آهم،

فأجابوا أنهم لا يعرفونه. قال أحدهم: «ربما عرفناه هناك»، وأشار برأسه نحو الجنوب.

«هل جئتم من هناك؟» سألته ونظر إلي بدهشة.

قال: «كلنا جئنا من هناك، وبعد قليل نذهب إلى هناك». هذه المرة أشار برأسه نحو الشمال. «إلى كن غالوس» أضاف في النهاية.

سمعنا الآن العديد من الإشارات إلى ضرورة أن نصبح غالوس. كان آهم قد تحدث عن ذلك عدة مرات. قررنا أنا وليس أن هذا ربما يكون نوعًا من العقيدة الدينية الأصلية، جزءًا من غريزة الحفاظ على الذات وقبول بدائي لفكرة الحياة بعد الموت وحالة أسمى. كانت نظرية مثيرة، لكنها كانت خاطئة تمامًا. أعرف ذلك الآن، وما مدى بُعدنا عن اكتشاف الحقيقة العجيبة والمعجزية التي تميز كاسبك عن بقية العالم، بعيدًا عن موقعها الجغرافي المعزول أو حاجزها المحصن بالجرف العملاق. العودة إلى الحضارة كان يجب أن أحمل معي لهم من رجال الدين والعامة لعقود، وأيضًا من علماء التطور.

بعد الإفطار، انطلق الرجال للصيد، بينما توجهت النساء إلى بركة كبيرة من المياه الدافئة مغطاة بطبقة خضراء ومليئة بمليارات من الشراغيف. مشينا في المياه حتى بلغ عمقها حوالي قدم واحدة، ثم استلقينا في الوحل. بقينا هناك ساعة أو ساعتين، ثم عدنا إلى الجرف. وبينما كنا معهم، لاحظنا أن هذا المشهد يتكرر كل صباح. ورغم أننا سألناهم عن السبب، لم نتمكن من الحصول على إجابة مفهومة. كل ما قالوه كان كلمة واحدة: «آتا». حاولوا أن يجعلوا ليس تنضم إليهن، لكنهم لم يفهموا سبب رفضها. بعد اليوم الأول، انطلقت

للصيد مع الرجال، تاركًا نوبس وليس في المعسكر، لكنها لم تضطر لاستخدام المسدسات، لأن أي حيوان زاحف أو وحش لم يقترب من البركة أثناء وجود النساء هناك ولا يبدو أنهم اقتربوا في أي وقت آخر. لم تكن هناك آثار لحيوانات برية في الوحل الطري.

على ضفاف البركة، كان الماء غير صالح للشرب، ملوثًا بالروائح الكريهة. عاشت هذه القبيلة على صيد الحيوانات الصغيرة باستخدام فؤوسهم الحجرية. كانوا يطوّقون فريستهم في دائرة واسعة، يدفعونها نحو أفراد القبيلة الذين كانوا ينتظرون لقتلها. كانوا يمتلكون عددًا كافيًا من الخيول الصغيرة والغزلان لتلبية احتياجاتهم، إلى جانب ما يجنون من فواكه وخضروات. لم يجرؤوا على جلب أكثر مما يحتاجون إليه؛ فمشكلة الطعام في «كاسبك» ليست أمرًا يقلقهم.

في اليوم الرابع، أخبرتني ليس أنها تعتقد أنها ستكون قادرة على المحاولة للعودة في اليوم التالي. خرجت للصيد بروح معنوية عالية، إذ كنت شغوفًا بالعودة إلى الحصن لأرى إن كان برادلي ورفاقه قد عادوا، وما أسفرت عنه حملتهم. كما كنت أرغب في تخفيف قلقهم بشأننا، فقد كانوا يظنون أننا قد لقينا حتفنا. كان اليوم غائمًا، رغم الطقس الدافئ المعتاد في «كاسبك». كان غريبًا أن أدرك أن المسافة بيننا وبين الشتاء، الذي يغطي المحيط العاصف، لا تتجاوز بضعة أميال، بينما الثلج يغطي كل شيء حول كابرونا، غير أنه لا يستطيع اختراق الجو الرطب الحار لفوهة البركان الكبرى.

كان علينا السير مسافة أطول من المعتاد قبل أن نتمكن من إحاطة

قطيع من الغزلان. بينما كنت أساعد في دفعها، لمحت غزالًا أحمر على بعد مئتي ياردة خلفي. لا بد أنه كان نائمًا في العشب الطويل، فقد نهض فجأة، يحدق حوله مرتبكًا. رفعت بندقيتي وأطلقت عليه النار. سقط، فركضت لأكمل قتله باستخدام السكين الطويل الذي أهداني إياه أحد الرجال، لكن قبل أن أتمكن من الوصول إليه، تمايل على قدميه، وركض لمسافة أخرى. تكرر هذا المشهد عدة مرات حتى تمكنت من قتله. نظرت حولي لأبحث عن رفاقي الذين كنت أتمنى أن يساعدوني في حمل اللحم إلى المعسكر، لكنهم لم يكونوا هناك. ناديت عدة مرات، ولكن لم يجيب أحد. أخيرًا، شعرت بالإحباط، ففصلت اللحم الذي استطعت حمله، وبدأت السير نحو الجرف. لابد أنني قطعت مسافة ميل كامل قبل أن أدرك الحقيقة المؤلمة أنني كنت ضائعًا، ضائعًا بلا أمل.

كانت السماء لا تزال مغطاة بسحب كثيفة، ولم يكن هناك أي معلم مرئي يساعدني في تحديد الاتجاه. واصلت السير في الاتجاه الذي ظننته جنوبًا، لكنني الآن أعتقد أنه كان شمالًا، دون أن أتعرف على أي شيء مألوف. بينما كنت أواصل السير في الغابة الكثيفة، تعثرت فجأة بشيء ملأني بالأمل في البداية، ثم سرعان ما ملأني باليأس. كان تلًا صغيرًا من الأرض المحفورة حديثًا، مزروعًا بأزهار ذابلة. وعلى أحد أطرافه كان هناك لوح مسطح من الحجر الرملي مغروز في الأرض. كان قبرًا. كان هذا القبر يعني لي أنني دخلت إلى أرض يسكنها البشر. كنت سأجدهم، وسيوجهونني إلى الجرف، وربما يرافقونني إلى مساكنهم إلى أماكن مشابهة لمساكننا. وفي تلك اللحظة، كانت آمالي وخيالي يحلقان في فضاء المستقبل الذي كان

يقترب مني شيئًا فشيئًا. بينما كنت أنحني لأقرأ الحروف البدائية المحفورة على شاهد القبر البسيط في ذلك المكان المنعزل، كان المكان يعبق بالحزن العميق. هذا ما قرأته:

هنا يرقد جون تيبِت

إنجليزي قُتل على يد التيرانوصور

10 سبتمبر، سنة 1916

ر. إ. ب.

تيبِت! كان الأمر غير معقول. تيبِت يرقد هنا في هذه الغابة الموحشة! تيبِت ميت! كان رجلًا صالحًا، لكن ما أثر فيّ لم يكن الخسارة الشخصية بقدر ما كان هذا القبر الساكن هو الدليل على أن برادلي قد وصل إلى هذا المكان في حملته، وأنه، ربما، كان هو الآخر ضائعًا. إذا كنت قد عثرت على قبر أحد أفراد الحملة، أليس من الممكن أن تكون عظام الآخرين متناثرة هنا بالقرب؟

الفصل التاسع

بينما كنت ثابتًا، أنظر إلى ذلك التل الحزين المنعزل، غارقًا في تأملات قاتمة وتنبؤات مشؤومة، تم استدراجي فجأة من خلفي، وسقطت على الأرض. سقط جسد دافئ فوقي، وأيدٍ تمسكت بذراعي وساقي. وعندما استطعت أن أرفع عيني، رأيت عدداً من الأشكال العملاقة تثبتني على الأرض، بينما كان آخرون يراقبونني حولي. هؤلاء كانوا نوعًا جديدًا من البشر، شعب أطول قامة، بأجسام ووجوه أكثر ذكاء، وجماجم أفضل. كانت ملامحهم أقل تطابقًا مع القردة، وكانت السمات النيغروية أقل وضوحًا أيضًا. حملوا أسلحة متنوعة، مثل الرماح والسكاكين والفؤوس الحجرية، وارتدوا زينة ملونة وألبسة مصنوعة من جلد الثعابين، مع رؤوسها متدلية حتى ركبهم.

بالطبع، لم أتمكن من ملاحظة كل هذه التفاصيل في لحظة أسري، لأنني كنت مشغولًا بالمقاومة. كان ثلاثة من المحاربين يحاولون تثبيتي باستخدام القوة، لكنهم كانوا يواجهون صعوبة شديدة. لا أريد أن أبدو متفاخرًا، ولكنني فخور بما أنجزته من قوة وفن استخدمتها لحماية نفسي خاصة فن «الجيو-جيتسو» الذي درسته لسنوات عدة في المدرسة وأندية الرياضة في لوس أنجلوس. وفي تلك اللحظات العصيبة، كانت كل الساعات الطويلة من الدراسة والتدريب تؤتي ثمارها بالكامل. استغرق الأمر نحو ثلاثين ثانية فقط لأكسر كوع أحد المهاجمين، وبذلك بدأت دورتنا معًا.

أرسلوا الرجل إلى الوراء بين زملائه، بينما رمى الثالث بشكل

كامل، وكان رأسي يكاد ينكسر في اللحظة التي رأيتك فيها. ساد صمت مفاجئ، ففوجئ الجميع، فاندفعت لأطلق بندقيتي دون قصد. حملوه على ظهري، وعندما شحنوا، كما شعرت، وضعت رصاصة في جبهة أحدهم. توقفوا جميعًا للحظة، ليس بسبب وفاة رفيقهم، بل بسبب صوت البندقية الذي كان أول ما سمعوه. وقبل أن يستعدوا لمهاجمتي مرة أخرى، تحدث أحدهم إلى رفاقه بلغة وصائية، بلكنة شبيهة بلغة قبيلة الجنوب، لكن أكثر اكتمالاً، كما لو كان لهم نظام خاص. أمرهم بالتراجع، ثم تقدم ليخاطبني، سائلًا عن هويتي، ومكان قدومي، ونواياي.

أجبته بأنني غريب في كاسباك، ضائع، ورغبتي الوحيدة هي العودة إلى رفاقي. سألني عن مكانهم، فأخبرته أنهم إلى الجنوب، مستخدمًا العبارة الكاسباكية التي تعني حرفيًا «نحو البداية». تجلى الارتباك على وجهه قبل أن يعبّر عنه بالكلمات قائلاً: «لا يوجد غالوس هناك.»

أجبته بغضب: «أقول لك إنني من بلاد بعيدة عن كاسباك، أبعد من الجروف العالية. لا أعرف من هم الغالوس، ولم أرهم قط. هذه هي أقصى نقطة شمالًا وصلت إليها. انظر إليّ، انظر إلى ملابسي وأسلحتي. هل رأيت يومًا غالوسًا أو أي مخلوق آخر في كاسباك يمتلك مثل هذه الأشياء؟»

اعترف بأنه لم يرَ شيئًا كهذا، وأنه أصبح مهتمًا جدًا ببندقيتي وطريقة تعاملي مع المحاربين الثلاثة. وفي النهاية، صار شبه مقتنع بكلامي وعرض عليّ مساعدتي بشرط أن أريه كيف رميت الرجل من

فوق رأسي، وأيضًا إذا أعطيته «رمح الضجيج» كما سماه. رفضت أن أعطيه بندقيتي، ولكن وعدت أن أريه الحيلة التي يريد تعلمها إذا أرشدني إلى الاتجاه الصحيح. قال لي إنه سيفعل ذلك غدًا، لأنه كان متأخرًا اليوم، وعرض عليَ أن أمضي الليل في قريتهم. ترددت في البداية على ضياع الوقت، لكن الرجل كان مصرًا، فقبلت أن أرافقهم. تركوا الرجلين القتيلين حيث سقطا، ولم يلتفتوا إليهما، فهذه هي الحياة في كاسباك.

كان هؤلاء الناس أيضًا يسكنون الكهوف، ولكن كهوفهم كانت أرقى وأظهرت درجة أعلى من الذكاء، مما جعلهم أقرب إلى البشر المتحضرين مقارنةً بالقبيلة التي كنت فيها «نحو البداية». كانت كهوفهم خالية من القمامة، رغم أنها لا تزال بعيدة عن النظافة المثالية، وكان لديهم فراش من الأعشاب المجففة مغطى بجلود الفهود، اليوكس، والدببة. أمام المداخل كانت

بينما كانت توجد أمام المداخل حواجز من الحجارة وأفران حجرية صغيرة مستديرة بدائية. كانت كانت جدران الكهف الذي أخذوني إليه مزينة برسوم محفورة على الحجر الرملي، تمثل مشاهد حيواتٍ قديمة ومخلوقات غابرة: أشجار الأيل الأحمر العملاقة، والماموث العملاق، والنمور الشرسة، وحيوانات أخرى. وفي هذا المكان، كما في قبيلة تسى السابقة، غاب الأطفال وكبار السن، مما جعلني ألتقط شعورًا عميقًا بأن الحياة هنا لا تعرف التراخي أو الضعف. كان لدى رجال هذه القبيلة اسمان، أو بالأحرى أسماء من مقطعين، بينما كانت لغة قبيلة تسى مقتصرة على كلمات من مقطع واحد، باستثناء بعض الكلمات النادرة مثل أطيس

وغالوس. وكان اسم الزعيم تو-جو، الذي كان يعيش مع سبع نساء، وهو وحده بينهن. كانت نساؤه أكثر جمالًا، أو بالأحرى أقل قبحًا من نساء قبيلة تسى، وكانت إحداهن، حتى، قريبة من الجمال، بشعر أقل وحسن في البشرة ولون مثالي.

كان الجميع هنا مهتمين بي إلى حد كبير، يتفحصون ملابسي وأدواتي بعناية، يعالجون كل قطعة من ملابسي أو معداتي كما لو كانت قطعة أثرية، يشمونها بفضول. ومن خلالهم، تعلمت أن قومهم يُدعى «باند-لو»، أي رجال الرماح، بينما قبيلة «تسى» تُسمى «ستو-لو»، أي رجال الفؤوس. تحت هؤلاء في سلم التطور جاء «بو-لو»، رجال العصي، ثم «ألو»، الذين لا يملكون سلاحًا ولا لغة. وفي كلمة «ألو»، اكتشفت، على ما يبدو، ما يمكن أن يكون أكثر الاكتشافات إثارة في رحلتي عبر كابورنا؛ فقد بدا لي أنها ليست مجرد صدفة، بل هي كلمة قد تم نقلها منذ ملايين السنين، قد تكون ما تبقى من أولى كلمات اللغة المنطوقة على الأرض. إنها الخيط الوحيد المتبقي من ثقافة نشأت عندما كانت كابورنا جبلًا ناريًا على أرض ضخمة مليئة بالحياة. هذه الكلمة كانت الرابط بين الماضي الغامض والحاضر الأبدي، وإن كنت لا أستطيع الجزم، فحكم عقلي يخبرني بأن هناك شيئًا غريبًا في أن الكلمة نفسها في كاسباك، «ألو»، هي نفسها الكلمة المستخدمة اليوم في عالمنا الخارجي، «ألالوس».

أما المرأة الجميلة التي تحدثت عنها، فكانت تدعى «سو-تا»، وقد أبدت اهتمامًا حيًا بي لدرجة أن «تو-جو» اعترض على ذلك، وأظهر استياءه بضربها ودفعها إلى زاوية الكهف. اندفعت بينهما بينما كان يواصل الركل، أمسكته بسرعة وسحبته بعيدًا عن الكهف وهو يصرخ

من الألم. أجبرته على أن يعدني بعدم إيذاء المرأة مرة أخرى، تحت تهديد عقاب أشد. أهدتني «سو-تا» نظرة شكر، لكن «تو-جو» وبقية نسائه كانوا غاضبين ومشوشين.

وفي وقت لاحق من المساء، همست لي «سو-تا» أنها ستغادر القبيلة قريبًا. «سو-تا ستصبح كرول-لو قريبًا»، همست لي بصوت منخفض، كأن الكلمات تتساقط من بين شفتيها بخجل. تساءلت عن ماهية «الكرول-لو»، وأثناء محاولتها شرحها لي، بقي المعنى بعيدًا عن متناول فهمي. من إشاراتها، استنتجت أن الكرول-لو هم قوم مسلحون بالقوس والسهم، يعيشون في بيوت من نوع ما، ويرتبطون بحيواناتهم التي ترافقهم. كانت الصورة مبهمة، لكن الفكرة التي وصلتني تشير إلى أن الكرول-لو كانوا أكثر تقدمًا من الباند-لو. فكرت طويلًا فيما سمعته، حتى قبل أن يغشي عليّ النوم. حاولت أن أربط بين هذه الأعراق المختلفة وبين الأمل الذي كان يراود كل واحد منهم في أن يصبح غالوسًا ذات يوم. قدمت لي «سو-تا» فكرة، لكن هذه الفكرة كانت غريبة لدرجة أنني عجزت عن فك رموزها، ومع ذلك، بدا أن ذلك يتماشى مع الأمل الأكبر الذي عبر عنه الجميع، ومع التنوع الذي لاحظته في الخطوات التطورية بين القبائل التي التقيتها. في «باند-لو»، مثلًا، كان هناك نوع مثل «سو-تا» التي بدت لي أعلى تطورًا، و«تو-جو» الذي كان أقرب إلى القردة قليلًا، بينما كان آخرون يظهرون بأنوف مسطحة ووجوه بارزة وأجسام مشعرة. كانت هذه المسائل تثير حيرتي. ربما في عالم آخر، يكون الجواب مدفونًا في صدر أبو الهول، من يدري؟ لا أعرف.

أفكر في أفكار تبدو جنونية أو كأنها هذيان مدمن مخدرات، ثم

غفوت. وعندما استيقظت، شعرت بأن يديّ وقدماي قد تم ربطهما بإحكام، وأسلحتي قد اختفت. كيف فعلوا ذلك دون أن أستيقظ؟ لا أستطيع أن أخبرك. كان الأمر محبطًا، لكنه كان واقعًا. كان «تو-جو» واقفًا فوقي. ضوء الصباح الباكر كان يتسلل بخجل إلى داخل الكهف.

«قل لي»، قال بصوت قاسٍ، «كيف تلقي برجل فوق رأسك وتكسر عنقه، لأنني سأقتلك، وأريد أن أعرف هذا قبل أن تموت.»

من بين كل الكلمات البريئة التي سمعتها في حياتي، كانت هذه الأكثر براءة. بدت لي فكاهية للغاية لدرجة أنني، حتى في وجه الموت، ضحكت. الموت، هنا، كان قد فقد الكثير من رعبه بالنسبة لي. كنت قد أصبحت تلميذًا لفلسفة «العدم» التي تقول بعدم جدوى الحياة البشرية. أدركت أنها كانت على حق تمامًا - نحن مجرد شخصيات كوميدية نتنقل بين المهد والقبر، وكأننا لا نعبأ بأي كائن آخر سوى أنفسنا وأقاربنا القلائل.وراء «تو-جو»، كانت «سو-تا» واقفة، وقد رفعت يدها وأشارت إليّ بإصبعها، في حركة توازي هز رأس كاسباك اللامبالي.

«دعني أفكر في الأمر»، أجبت بتردد، فقال «تو-جو» إنه سينتظر حتى المساء، وأنه سيمنحني يومًا للتفكير. ثم غادر، وغادرت النساء معه. الرجال انطلقوا في رحلة الصيد، بينما توجهت النساء، كما أخبرتني «سو-تا» لاحقًا، إلى البركة الدافئة حيث اغتسلت أجسادهن كما تفعل نساء «ستو-لو». وعندما استفسرت عن مغزى هذه الطقوس الصباحية، شرحت لي «سو-تا» بأنها تسمى «أتا»، لكن هذا كان لاحقًا.

لابد أنني بقيت مقيدًا، غير مرتاح، لساعتين أو ثلاث، حتى دخلت «سو-تا» الكهف أخيرًا. كانت تحمل سكينًا حادًا، سكينًا لي، وقطعت بها قيودي. «تعال!» قالت، بنبرة حاسمة وتابعت «سوف تذهب معي إلى كرو-لو. حان الوقت لتغادر باند-لو.» ثم أضافت بلهجة حزينة: «سنذهب معًا إلى كرو-لو، وبعدها إلى جالوس. ولكن تو-جو سيقتلك الليلة، وسيقتلني إن علم أنني ساعدتك، لذلك يجب أن نغادر معًا.»

أجبتها بصوت ضعيف: «سأذهب معك إلى كرو-لو، ولكن يجب أن أعود إلى شعبي، إلى البداية.»

أجابتني نظرتها الثابتة: «لا يمكنك العودة إلى الوراء. إنك محظور. سيقتلونك إن حاولت. لا عودة.»

«لكن يجب أن أعود!» أصررت قائلا «شعبي هناك. يجب أن أعود لأقودهم في هذا الاتجاه.»

تبادلنا الإصرار لفترة، حتى توصلنا إلى تسوية. سأرافقها إلى كرو-لو، ثم أعود إلى شعبي لأقودهم شمالًا إلى أرضٍ تكون فيها المخاطر أقل والشعب أقل قتلًا. أحضرت لي أغراضي التي سلبت مني، البندقية، والذخيرة، والسكين، وزجاجة الترمس، ثم نزلنا يدًا بيد من الجرف وشرعنا في التوجه نحو الشمال. استمررنا في طريقنا ثلاثة أيام، حتى وصلنا إلى قرية من الأكواخ القشية عند الغروب. قالت «سو-تا» إنها ستدخل وحدها؛ يجب أن لا أُرى إن لم أكن أنوي البقاء، لأن من بلغ هذه المسافة لا يُسمح له بالعودة.

تركتني هناك، ولم أستطع إلا أن ألاحظ كيف كانت عزيزة عليّ. كانت رفيقة مخلصة وصادقة، وأشد شبهاً بالرجل منها بالمرأة. برغم

بدائيتها، كانت تجمع بين الرقي والعفة. كانت زوجة تو-جو. لكن، كما أخبرتني بصدق، قالت إنه إن عدت، ستترك رفيقها وتأتي إليّ، لأنها تفضلني على الجميع. بدا لي اعترافها هذا، بعد سنوات من الخجل، علامة على تحول مفهومي للعلاقات.

تركتها في أطراف القرية دون أن أتعرف على سكانها، وانطلقت عبر الظلام المتزايد نحو الجنوب. في اليوم الثالث، سلكت مسارًا مائلًا إلى الغرب لتجنب بلاد باند-لو، حيث لم أكن أرغب في التأخر بسبب لقاء مع تو-جو. في اليوم السادس، وصلت إلى جروف الستول-لو، وكان قلبي يخفق بشدة وأنا أقترب منها. قريبًا، سأحمل ليس بين ذراعيّ مجددًا؛ قريبًا ستتلامس شفتيها الحارتين مع شفتي. كنت متأكدًا أنها كانت ما تزال بأمان بين شعب الفؤوس، وتخيلت الفرح في عينيها عندما ترافقني مجددًا.

كان ذلك في وقت متأخر من الصباح. لابد أن النساء قد عدن من البركة؛ لكن عندما اقتربت، لم ألاحظ أي حركة. «لقد تأخرن أكثر»، فكرت في نفسي. لكن عندما اقتربت من قاعدة الجروف، انقضت على قلبي حقيقة مدمرة. كانت هناك على الأرض بقايا صامتة ومرعبة لما حدث أثناء غيابي، عظام نظيفة من اللحم، عظام مخلوقات تشبه البشر، وعظام العديد من قبيلة الستول-لو؛ ولم تكن هناك أي علامة على الحياة في أي كهف.

فحصت بعناية ما تبقى من بقايا مرعبة، وكان كل لحظة تمر تخيفني أكثر، خشية أن أعثر على الجمجمة الضعيفة التي ستقضي على سعادتي إلى الأبد. ورغم جهدي الحثيث، وأنا ألتقط كل واحدة

من العشرين جمجمة، لم أجد واحدة تنتمي إلى مخلوق بعيد عن القرد. إذن، بقي الأمل حيًا. لأيام ثلاثة أخرى، واصلت البحث شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا عن رجال الفؤوس من كاسباك، لكن لم أعثر لهم على أثر. كانت الأمطار تتساقط بغزارة، وكان البرد قارسًا، كما لم أشهد مثله في كابرونا.

وفي النهاية، استسلمت للبحث، وبدأت مسيرتي نحو حصن الديناصور. أسبوع كامل، أسبوع من الرعب والمخاطر في عالم بدائي ظللت أسير في الاتجاه الذي اعتقدت أنه الجنوب. لم تظهر الشمس أبدًا، والأمطار لم تتوقف سوى قليلاً. الحيوانات التي صادفتها كانت أقل عددًا وأكثر قلقًا. ومع ذلك، استمررت في العيش، حتى أدركت، بكل يأس، أنني ضائع تمامًا، وأن سنة من الضوء لن ترد لي اتجاهاتي. وفي تلك اللحظة المروعة، التي أدركت فيها أنه لا سبيل لي للعثور على ليز، عثرت على قبر آخر، قبر ويليام جيمس، مع شاهد قبر بدائي عليه مكتوب: «توفي في الثالث عشر من سبتمبر، قُتل على يد نمر ذو ناب سيفي.»

أظن أنني كدت أستسلم في تلك اللحظة. لم أشعر في حياتي بمزيد من اليأس والعجز والوحدة. كنت ضائعًا. لم أتمكن من العثور على أصدقائي، ولم أكن أعرف حتى إن كانوا لا يزالون على قيد الحياة. كنت متأكدًا أن ليز قد فارقت الحياة. تمنيت لو كنت قد مت، لكنني تمسكت بالحياة رغم أنها أصبحت شيئًا عقيمًا ومؤلمًا. تمسكت بالحياة لأن أحد أسلافي، من الزواحف، تمسك بها، وأوصاني عبر العصور بأن أواصل البقاء.

أخيرًا، وصلت إلى الجروف العظيمة؛ وبعد ثلاثة أيام من الجهد اليائس ومن جهد هستيري تمكنت من تسلقها. صنعت سلالم بدائية؛ وضعت العصي في الشقوق الضيقة؛ قطعت أماكن لراحتي القدم والأصابع بسكينتي الطويلة؛ ولكنني في النهاية تسلقتها. بالقرب من القمة، عثرت على كهف ضخم. كان مسكنًا لمخلوق مجنح عظيم من العصر الترياسي أو هكذا كان يبدو. الآن هو ملكي. قتلت ذلك الكائن واتخذت مسكنه. وصلت إلى القمة، ونظرت إلى المحيط الهادئ الواسع، الرمادي، الرهيب في الشتاء الجنوبي البعيد. كان الجو باردًا هناك. إنه بارد هنا اليوم؛ ومع ذلك، هنا أنا جالس، أراقب، أراقب، أراقب الشيء الذي أعلم أنه لن يأتي أبداً.

الفصل العاشر

كل يوم، أنزل إلى قاعدة الجرف وأصطاد، أروي عطشي من ينبوع صافٍ، وأملأ قلالي بالماء لأحتفظ بها في كهفي استعدادًا لليالي الباردة. صنعت رمحًا وقوسًا وسهامًا، لأتمكن من تأمين غذائي ودفاعي بعدما أوشكت ذخيرتي على النفاد. ملابسي تمزقت تمامًا، ولكن غدًا سأستبدلها بجلود الفهود التي جففتها بعناية، خياطتها لتصبح درعًا دافئًا ضد قسوة الطقس. الجو بارد هنا، والنار مشتعلة أمامي، وأنا جالس منحنيًا فوقها، أكتب. ولكنني في أمان. لا يجرؤ أي مخلوق على الاقتراب من قمة الجرف، التي تبقى باردة ومنعزلة. هنا، أنا وحيدة مع همومي وأفراحي التي باتت مجرد ذكريات، بلا أمل. يقولون إن الأمل ينبع دائمًا في قلب الإنسان، ولكن ليس في قلبي.

لقد أوشكت على الانتهاء. قريبًا، سأطوي هذه الصفحات وأضعها في زجاجة حرارتي. سأغلقها بإحكام، ثم أرمي بها في البحر بكل قوتي. الرياح تأتي من البحر، والمد يتراجع. ربما تأخذها إحدى التيارات البحرية التي تجتاح المحيطات من القطب إلى القطب، ومن قارة إلى قارة، حتى تصل إلى شاطئ مأهول. إذا كانت الأقدار تبتسم، وإذا حدث هذا، فلتأتوا إليّ من أجل الله! كان ذلك قبل أسبوع، حين كتبت الفقرة السابقة، معتقدة أنها ستكون نهاية سجل حياتي على كابرونا. توقفت، وأخذت أضع نقطة جديدة على ريشتي، وأحرّك الحبر الخام الذي أصنعه من سحق نوع من التوت الأسود وخلطه بالماء، قبل أن أضع توقيعي. وفي تلك اللحظة، من

أسفل الوادي، سمعت صوتًا لا لبس فيه جعلني أرتجف من الإثارة وأحدق بشوق نحو الأسفل من حافة الجرف المتهالكة. كم كان لهذا الصوت من معنى عميق بالنسبة لي، فإذ به صوت إطلاق نارا للحظة، جالت عيناي في المشهد أسفل الجرف، حتى توقفت عند أربعة أشكال بالقرب من القاعدة شكل إنساني محاصر من ثلاثة هياينودونات، تلك الكلاب البرية المفترسة العطشى للدماء من عصر الإيوسين. كان هناك وحش رابع، إما ميت أو يحتضر بالقرب منهم.

لم أتمكن من التحقق بشكل كامل من الأعلى، ولكنني اهتزت كما تهتز ورقة شجرة في رياح خريفية، عندما أدركت غريزيًا، وبحكم عقلي، أن ذلك الشخص لم يكن يحمل سوى مسدس، مما جعله دون سلاح حقيقي لملاقاة هذا الكابوس. كانت لحظة فرح مفاجئة، قصيرة العمر، سرعان ما تلاشت عندما تأكدت من أن الشخص الذي كان يقاتل أسفل الجرف قد حكم عليه بالفشل. لا بد أن الطلقة الأولى قد قتلت أحد الوحوش، ولكن حتى سلاح ثقيل مثل مسدسي لن يكون كافيًا لمواجهة حتى أصغر الحيوانات المفترسة في كاسباك. في لحظة، ستهجم الثلاثة معًا! ستكون الطلقة بلا طائل، بل ستزيد فقط من غضب الوحوش، ثم سيجزّون الشخص البشري الضعيف ويمزقونه إربًا.

وربما كان ذلك الشخص هو ليس! تجمد قلبي عند هذه الفكرة، لكن العقل والعضلات استجابا بسرعة للقرار الذي لم يكن أمامي سواه. كان أمامي أمل واحد، فرصة وحيدة، فتمسكت بها بكل قوتي. رفعت بندقيتي إلى كتفي ووجهت الهدف بعناية. كانت رمية طويلة، وخطرة، لأن التصويب من هذا الارتفاع يعد أمرًا مضللًا إن لم تكن

معتادًا عليه. ومع ذلك، هناك ما يتجاوز المنطق في الرماية.

لا أستطيع تفسير دقة تصويبي في تلك اللحظة إلا بشيء يفوق النظرية. ثلاث مرات، انفجر الصوت من بندقيتي، ثلاث كلمات قصيرة من الموت. لم أكن أوجه الهدف بوعي كامل، ومع ذلك، سقط الوحش في كل مرة. من حافتي إلى قاعدة الجرف مسافة تمتد لآلاف الأقدام، وكل خطوة منها تمثل خطرًا محدقًا. لكنني أستطيع القول إن سرعة هبوطي على تلك الحافة الوعرة لا تضاهي سرعة أي مخلوق من أسلافنا. آخر مئتي قدم كانت على منحدر حاد، يلتقي الحصى فيه حتى قاع الوادي، وقد وصلت إلى قمة هذا المنحدر للتو عندما وصل إلى أذني صرخة مملوءة بالألم-«بوين! بوين! بسرعة، حبيبي، بسرعة!»

كنت مشغولًا بمخاطر النزول فلم أنظر إلى الوادي، لكن تلك الصرخة جعلت عيني تلتفتان بسرعة نحوها. هناك، رأيت وحشًا مشعرًا ضخمًا يمسك بليز ويبدأ في الجري بها نحو الغابة القريبة. قفزت نحو الوادي، مثل الوعل، لألاحق ليس وخاطفها. كان الوحش أكبر مني بكثير، مثقلًا بعبء ثقيل، لكنني تجاوزته بسهولة. وأخيرًا، استدار، زمجر، ليواجهني. كان (كو) من قبيلة (تسا)، رجال الفؤوس. لقد عرفني، وبهدير منخفض، ألقى ليس جانبًا وأقبل نحوي.

قال: «إنها لي!» وصرخ، «سأقتلك! سأقتلك!»

كان عليّ التخلص من بندقيتي قبل أن أهبط السريع على المنحدر، لذلك كنت الآن مسلحًا فقط بسكين صيد، وحملتها في ي

كان علي أن أتخلص من بندقيتي قبل أن أبدأ في النزول السريع

للمنحدر، لذلك كنت مسلحا فقط بسكين صيد، وهذا جلدته من غمرته كما قفز كاو؟ نحوي. لقد كان وحشا جبارا، مفتول العضلات بقوة، والرغبة التي جعلت الذكور تقاتل منذ بزوغ الحياة على الأرض ممتليء بشهوة الدم والعطش للقتل ولكني لم أمتليء بنفس المشاعر البدائية، اثنين من الوحوش السحيقة ظهرت في كل منهما وفي ذلك اليوم، كان يخنق الآخر تحت ظل اقدم جروف الارض -الانسان الحاضر والأول، كنت نسيت نفسي حينها مشبع بنفس الشغف الخالي من الموت الذي أتى دون تغيير خلال كل الحقب، الفترات والحقب الزمنية من البداية، والذي سَيَستمرُ إلى المرة النهائيةِ التي لا تحسبَ مادامت الحياة.

أغلق كو فمه وأخذ يطارد عرقوبي بأسنانه. بدا وكأنه نسي الفأس التي كانت معلقة على وركه بحبل مصنوع من جلد البيسون، كما نسيث، للحظة، الخنجر في يدي. ولا شك في أن كو كان سيتفوق عليّ بسهولة في مواجهة من هذا النوع، لولا أن صوت ليس أيقظ في عقلي المشوش مهارة وفطنة الإنسان العاقل.

صاحت. «سكينك! سكينك!»

كان ذلك كفيلًا بإعادتي إلى الوعي بعد أن كنت قد تاه عقلي في زمان بعيد، وجعلني من جديد رجلًا معاصرًا يواجه وحشًا بليدًا وغير ماهر. لم يعد فكّي يغلق على الحنجرة أمامي؛ بل أصبحت سكينتي تبحث عن نقطة ضعف بين ضلوعه فوق قلبه الوحشي. أطلق كو صرخة مرعبة، ثم تجمد فجأة وسقط على الأرض. عندها ألقت ليس نفسها في ذراعي. مسحت كل المخاوف والأحزان السابقة، وعادت

سعادتي، فشعرت أنني أسعد الرجال.

بتردد، رفعت عيني نحو الحافة الهشة التي تمتد أمام مغارتي. بدا لي أن من غير المعقول أن تتجرأ فتاة راقية على مجابهة مخاطر هذا التسلق المروع. سألتها إن كانت تعتقد أنها تستطيع تحمل الصعود، فضحكت في وجهي بمرح، وقالت:

«انظرا»

ثم ركضت بحماسة نحو قاعدة الجرف، كالسنجاب الذي يركض في غابة، تسلقت بسرعة، حتى اضطررت إلى بذل جهد لمواكبتها. في البداية خفت عليها، لكن سرعان ما أدركت أنها كانت بأمان هنا تمامًا كما كنت أنا. وعندما وصلنا أخيرًا إلى الحافة وأمسكت بها مجددًا في ذراعي، تذكرت أن ليس قد عاشت لأسابيع طويلة حياة فتاة كهفية مع قبيلة من رجال الفؤوس. فقد تم طردهم من مغاراتهم السابقة على يد قبيلة أخرى، التي قتلت العديد منهم وأخذت نصف الإناث تقريبًا، وأثبتت الجروف الجديدة التي فروا إليها أنها أكثر انحدارًا، حتى أصبحت، بحكم الحاجة، متسلقة ماهرة للغاية. أخبرتني عن رغبة «خو» فيها، منذ أن تم سرقة جميع إناثه، وكيف كانت حياتها كابوسًا مستمرًا من الرعب، وهي تسعى ليلاً ونهارًا لتفادي هذا الوحش الكبير. لفترة، كان «نوبس» هو كل ما تحتاجه من حماية، لكن في يوم من الأيام اختفى ولم تره منذ ذلك الحين. هي تعتقد أنه تم التخلص منه عمدًا؛ وأنا أعتقد ذلك أيضًا، فنحن على يقين أنه لم يكن ليخونها. مع فقدان وسيلة حمايتها، أصبحت ليس بعد ذلك تحت رحمة رجل الفأس؛ ولم يمض وقت

طويل قبل أن يمسك بها عند قاعدة الجرف ويأخذها، لكن بينما كان يحملها منتصرًا إلى مغارته، تمكنت من التحلل والهرب منه.

قالت: «لقد طاردني لمدة ثلاثة أيام، عبر هذا العالم الرهيب. كيف مررت به بأمان لا أستطيع تخمينه، ولا كيف تمكنت دائمًا من التفوق عليه؛ لكنني فعلت، حتى اكتشفتني أنت. كان القدر طيبًا معنا، بوين.»

أومأت برأسي موافقًا وضغطتها إليّ. ثم تحدثنا وتخطيطنا بينما كنت أطهو شرائح الظباء فوق ناري، وقررنا أنه لا أمل في الإنقاذ، وأنني وهي محكومان أن نعيش ونموت على كابرونا. حسنًا، قد يكون الأمر أسوأ! أفضل أن أعيش هنا دائمًا مع ليس بدلاً من العيش في مكان آخر بدونها؛ وهي، الفتاة العزيزة، تقول الشيء نفسه عني؛ لكنني أصبحت أخاف على حياتها هنا. إنها حياة صعبة، شرسة، خطيرة، وسأدعو دائمًا أن نُخلص منها - من أجلها.

في تلك الليلة، تفرقت السحب، وأشرقت الشمس على حافتنا الصغيرة؛ وهناك، يدًا بيد، وجهنا وجوهنا نحو السماء وتعاهدنا تحت عيون الله. لا شيء بشري كان ليزوجنا بشكل أقدس مما نحن متزوجان به. نحن رجل وامرأة، ونحن راضون. إذا شاء الله، سنعيش حياتنا هنا. إذا شاء غير ذلك، فإن هذا المخطوط الذي سأرسل به إلى قوى البحر غير المفهومة سيسقط في أيدٍ صديقة. ومع ذلك، نحن كلانا دون أمل. وهكذا نقول وداعًا في هذه رسالتنا الأخيرة إلى العالم ما وراء جروف الحاجز.

النهاية.